صُورَةُ المُخَيَّم
ودِلالاتُها
في
الشِّعْرِ الفِلَسْطينيّ

1994_1948

بحث مقدم لمؤتمر "اللاجئون الفلسطينيون وحق العودة"

جامعة القدس المفتوحة

2012/5/13

إعداد الدكتور:

نائل محمد إسماعيل

وكالة غوث وتشغيل اللاجئين

قطاع غزّة

2012م

تمهيد:

كَانَت القَضيَّةُ الفِلَسْطينيَّةُ _التي مَا زِلْنا نَعِيشُ فُصُولَها حَتَّى يَومِنَا الحَاضِرِ_ المُحَرِّكَ الأَوَّلَ لِهِمَمِ الشُّعَراءِ العَرَبِ عَامَّةً والفِلَسْطينيِّينَ خَاصَّةً ، حَيْثُ أَدَّى الشِّعْرُ دَوْرَهُ فِي إِلْهَابِ المَشَاعِرِ وَتَوْجِيهِ الاهْتِمَامِ بِالمَشْهَدِ الفِلَسْطينيّ، هَذا الشِّعْرُ الذي مَا انْفَكَّ يُخَاطِبُ العَالَمَ مُذكِّرَاً بِالحقِّ الفِلَسْطينيّ السَّليبِ مِنْ جِهَة ، ومُعلناً الثَّوْرَةَ والنِّضَالَ والمُقَاوَمَةَ وكُلَّ الطُّرُقِ الأُخْرَى التي تُعيدُ حُقُوقَه السَّليبةَ ، وتُعِيدُ لَهُ إِنْسَانِيَّتَه الضَّائعَةَ فِي المُخَيماتِ البَائِسَةِ . ولَقَدْ حَمَلَ الشَّعْبُ الفِلَسْطينيُّ البُنْدُقِيَّةَ وَأَقْسَمَ عَلَى النِّضَالِ ، حَتَّى تَعُودَ أَرْضُهُ وحُقُوقُهُ وهُوِيَّتُهُ الضَّائعةُ التي تُؤَكِّدُهَا أَشْلاءُ الضَّحَايَا كُلَّ يَوْمٍ ، وشَلالاتُ الدِّمَاءِ التي انْهمَرَت ، ومَا تَزَال .

ولَقَدْ ظَلَّ الشِّعْرُ الفِلَسْطينيُّ جُزْءًا مِنَ الشِّعْرِ العَرَبِيّ ، وَقَدْ اعْتَبَرَ الشُّعَراءُ الفِلَسْطينيُّونَ أَنْفُسَهُم تَلامِذَةَ العَرَبِ القُدَامَى والمُحْدَثِينَ . يَقُولُ مَحْمودُ دَرْوِيشُ : " وَشِعْرُنَا لَيْسَ نِدَّاً أَوْ بَدِيلاً لِلشِّعْرِ العَرَبِيّ المُعَاصِرِ ، إِنَّهُ جُزْءٌ غَيْرُ مُجْتَزَأ مِنْه ، ورَافِدٌ مِنْ رَوَافِدِ النَّهرِ الكَبِيرِ ، لَقَدْ تَرَبَّيْنَا عَلَى أَيْدِي الشُّعَراءِ العَرَبِ ، وَحَاوَلْنَا اللَّحَاقَ بِأُسْلُوبِ الشِّعْرِ الحَدِيثِ ، بَعْدَ أَنْ تَعَرَّفْنَا عَلَى رُوَّادِ هَذَا الشِّعْرِ فِي مِصْرَ والعِراقِ ولُبْنَانَ وسُورْيَا ، ونَحْنُ لا يُمْكِنُ إلا أَنْ نَعْتَبِرَ أَنْفُسَنَا تَلامِذَةً لأُولَئِكَ الشُّعَراءِ " (1) .

كَما احْتَلّت ظَاهِرةُ اللاجئينَ مَسَاحَةً عَرِيضَةً فِي المَشْهَدِ الشِّعْرِيّ الفِلَسْطِينيّ ، وَلا سِيّما فِي تِلْكَ السَّنَواتِ العِجَافِ الَّتي سَبَقَت ظُهُورَ مُنَظَّمةِ التَّحْرِيرِ الفِلَسْطِينيَّة وَفَصَائِلِ المُقَاوَمَة . ولَيسَ أَدَلَّ على ذَلِكَ مِنْ أَنَّ الإِشَارَةَ إِلى اللاجِئينَ كَانَتْ تَبْدَأُ بِعَناوِينِ مَجْمُوعَاتِ بَعْضِ الشُّعَراءِ . فَهَذا أَبو سُلمَى يُصدِرُ دِيوَانه (المُشَرَّد : 1953) ، أَمَّا يُوسُفُ الخَطيب ، فَإِنَّ عُنوانَ مَجْمُوعَتِه المُمَيَّزةِ المُبَكِّرَةِ (عَائِدون : 1959) ، ولِلشَّاعِرِ رَجَا سَمْرِين دِيوَانٌ عُنوانُهُ (الضَّائِعُون : 1960) .

ولَعَلَّ أَوَّلَ مَجْمُوعَةٍ فِلَسْطِينيَّةٍ تَنْطَلِقُ مِن مَأْسَاةِ اللاجِئين ، كَانَت لِلشَّاعِرِ هَارُون هَاشِم رَشِيد ، وَهِيَ (مَعَ الغُرَبَاء : 1954) . وَهُنَاكَ مَجْمُوعَاتٌ تُشيرُ أَسْمَاؤُهَا إِلى الجُرْحِ الفِلَسْطِينيِّ بِصُورَةٍ مُطْلَقَة ، مِثْلَ (فِلَسْطِينُ عَلَى الصَّلِيب : 1958) لِلشَّاعِرِ مُعِين بْسِيسو ، و(حَيْفَا فِي سَوادِ العُيُون : 1973) لِلشَّاعِرِ حَسَن البِحَيريّ .

والمُخَيَّمُ هُوَ أَبْرَزُ مَكَانٍ يَرِدُ مُبَاشَرةً فِي الشِّعْرِ الفِلَسْطِينيّ ؛ حَيْثُ اهْتَمَّ شُعَراءُ فِلَسْطِينَ بِتَصْوِيرِ حَياةِ اللاجِئينَ فِي المُخَيَّماتِ الفِلَسْطِينيَّةِ ، فِي الدَّاخِلِ وفِي الشَّتَاتِ ، مُنْذُ نَكْبَةِ فِلَسْطينَ وحَتّى يَوْمِنا هَذا .

والمُخَيَّمُ ذلكَ المجهولُ الذي لَجأَ إليه الفلسطينيّون مُرغمين بِلا حَولٍ مِنهم ولا قُوّة ، إبّانَ نكبةِ 1948 ، هذا المخيَّمُ تحوَّلَ في فترةٍ وجيزةٍ إلى صورةِ وطنٍ ومَنفى ، وبدايةِ انطلاقةٍ لنضالِهِ طِيلَةَ العُقُودِ الماضية ضِدَّ العدوِّ الصُّهيونيّ ، وصَارَ مسرحاً للتَّعبيرِ عنْ أحْلامِهِ المَسْروقةِ وطُمُوحَاتِهِ المَشْرُوعَةِ في العَوْدةِ والتَّحْرِير .

وللمُخَيَّمِ في الذَّاكرةِ الفِلَسْطينيَّةِ دِلالاتٌ تَحملُ الكثيرَ مِنْ مَشَاهدِ الألمِ والمُعاناةِ والغُرْبَةِ ، هـذهِ الحالـةُ التـي عاشَها الفِلسطينيُّ في بدايةِ هِجْرتِهِ ، واستمرَّت مَعَهُ مُنْذُ الأيَّامِ التي عَاشَها في الخيامِ وبُيوتِ الصَّفيحِ ، فَكانَ حَرُّها يَأكُلُ جَسَدَهُ صَيفاً ويَقْرِصُهُ بَردُها شِتاءً ، إلى المُخَيَّمِ في شَكْلِهِ الحَاليّ ، وقَصَصِهِ المَأْسَاويةِ وبُطُولاتِهِ . فقد صـارَ المُخَيَّمُ بِمن فِيهِ مِن جَرْحَى وثَكْلَى ويَتَامَى يَتَقَدَّمُ الجَميعَ ، ويَقُودُ الأَحْداثَ تَحتَ شِعارِ **(مَوْتٌ ولا رُكُوعٌ)** ، وتَحَـوَّلَ المُخَيَّمُ من مُجَرَّدِ خَرَائبَ يَعلُوهَا الصَّفيحُ إلى كَائنٍ فَاعِلٍ يُريدُ أَنْ يُغيّرَ وَجْهَ التَّاريخ ؛ لِذلكَ حَمَـلَ هُمُـومَ الـوَطَنِ لِيَقْذِفَها نَاراً فِي وَجْهِ عَدُوِّه ، عَلى الرَّغْمِ من شِدَّةِ الحِصَارِ الذي قُصِدَ مِنه أَنْ تَتَحوَّلَ المُخَيَّماتُ إلى سُجُونٍ جَمَاعيَّةٍ ، خَاصَّة إبّانَ الانْتِفَاضةِ الأُولَى .

ولقَد بَرَزَتْ صُورَةُ المُخَيَّمِ في الشِّعْرِ الفِلَسْطِينيّ بِأَرْبعِ دِلالاتٍ رَئِيسةٍ :

الأُولَى : البُؤْسُ والحِرْمَان ؛ فَالمُخَيَّمُ هُو رَمْزُ الفَقْرِ والبُؤْسِ ، الذي وَرِثَهُ الشَّعْبُ الفِلَسْطِينيّ جِيلاً بَعْدَ جِيـلٍ ، يَوْمَ هُجِّرَ عَن أَرْضِهِ .

الثَّانِيَة : المُعاناةُ والمَوْتُ . وهَذهِ الدِّلالةُ تَرْتَبِطُ بَسَابِقَتِهَا ؛ حَيْثُ يُؤَدّي الفَقْرُ والبُؤْسُ _فِي كَثيرٍ مِنَ الأَحْيَـانِ_ إلى المُعَاناةِ ثُمَّ المَوْتِ عَلى أَيْدِي الغُزَاةِ المُسْتَعْمِرِينَ .

الثَّالثة : الصَّبْرُ والصُّمُودُ ؛ حَيْثُ مَارَسَ اللاجِئُونَ صَبْرَاً وصُمُوداً أُسْطُورِيَيْن فِي وَجْهِ مُمَارَسَاتِ العَدُوّ التـي تَهْدِفُ إِلى تَغْيِيبِ اللاجِئينَ عَن قَضِيَّتِهِم العَادِلَة ، وقَطْعِ الوَشَائِجِ التي تَرْبِطُهُم بِوَطَنِهِم .

الرَّابِعَة : المُوَاجَهَةُ والتَّصَدّي ؛ فَقَدْ صَارَ المُخَيَّمُ رَمْزَ الصُّمُودِ والثَّوْرَةِ فِي وَجْهِ الظُّلْمِ ، فِيهِ يَتَجَسَّدُ الصِّـرَاعُ بَيْنَ الحَقِّ والبَاطِلِ ، فَعَلَى أَرْضِهِ وبِسَوَاعِدِ أَبْنَائِهِ انْطَلَقَتْ شَرَارَةُ المُقَاوَمَةِ والنِّضَالِ ، ثُمَّ انْتِفَاضَةِ الحِجَـارَةِ ، ثُـمَّ انطلقت إِلى سَائِرِ أَرْجَاءِ الوَطَنِ . فَكَانَت حَالاتُ العَذَابِ والأَلَمِ التي حَلّت بِالشُّعَرَاءِ وَأَبْنَاءِ شَعْبِهِم عَلَى أَيْدِي الغُـزَاةِ دَافِعَاً وَحَافِزَاً قَوِيَّيْنِ لِإِعْلانِ الصُّمُودِ فِي وَجْهِ الظُّلْمِ ومُمَارَسَاتِ القَمْعِ ، وتَحَدِّي كُلِّ أَسَالِيبِ العَدُوّ التي تَسْعَى إِلَـى تَرْسِيخِ الوَاقِعِ الأَلِيم . ولَقَد بَرَزَت صُورَةُ المُخَيَّمِ الثَّائِرِ الذي نَهَضَ مِن جِرَاحِهِ وَآلامِهِ يَتَصَدَّى لِعَدُوِّهِ بِكُلِّ أَشْـكَالِ القُوَّة ، فَعَلَى عَاتِقِ أَبْنَائِهِ تَقَعُ مَسْؤُولِيّةُ الكِفَاحِ والنِّضَالِ مِنْ أَجْلِ تَحقِيقِ حُلْمِ العَوْدَة .

وسَيَقُومُ البَاحث بِتَتَبُّعِ صُورَةِ المُخَيَّمِ _بِدِلالاتِها السَّابِقة_ فِي الشِّعْرِ الفِلَسْطِينيّ ، فِي الفَتْرةِ فِي الفَتْرَةِ مَا بَـيْنَ سَنَةِ ثَمَانٍ وأَرْبَعِينَ وَتِسْعِمِائَةٍ وأَلْفٍ (1948 : نكْبَةُ فِلَسْطِين) ، وسَنَةِ أَرْبَعٍ وتِسْعِينَ وَتِسْعِمِائَةٍ وَأَلْفٍ (1994 : نِهَايةُ الانْتِفَاضةِ الأُولَى) ، ومَا يَتَّصِلُ بِها مِن أَلْفَاظٍ ذَاتِ عَلاقَةٍ خَاصّةٍ بِمَشْهَدِ الحَيَاةِ فِي المُخَيَّم ، وتَحْلِيلِهـا مِـن خِـلالِ السِّيَاقِ الذي وَرَدَت فِيه ، كَيْ لا يَصْرِفُنَا مَعْنَاهَا المُعْجَميّ عَن المَعْنَى السّيَاقِيّ ، الذي أَفْرَزَتْهُ الصِّيَاغَةُ ، فَالكَلِمَـةُ تَكُونُ ذَاتَ وَظِيفَةٍ خَاصّةٍ فِي عَلاقَاتِها مَعَ الأُخْرَيَات . وسَيَتَناولُ البَاحِثُ الدِّلالاتِ الأَرْبعَ فِي شَكْلِ مَحَاوِر .

المِحْوَرُ الأَوَّلُ : المُخَيَّمُ رَمْزُ البُؤْسِ والحِرْمَان :

المُخَيَّمُ هُوَ ذَلِكَ المَكَانُ الذي شَهِدَ مَأْسَاةَ اللاجِئِينَ ، وهُوَ المَكَانُ الذي تَشَكَّلَتْ فِـــي أَزِقَّتِـــهُ ودَاخَـــلَ حُجَـــرِهِ الصَّغِيرةِ البَائِسةِ المُعَانَاةُ في أَوْضَحِ صُوَرِهَا . ولَقَدْ اقْتَرَنَت كَلِمةُ المُخَيَّمِ بِالذُّلِّ الذي تَجَرَّعَـــهُ الفِلَسْـــطينيُّونَ تَحْـــتَ الخِيَامِ وفي بُيُوتِ الصَّفيحِ والقَرْمِيدِ . ويُصَوِّرُ (رَجا سَمْرين) في قَصِيدَةِ (خِيَامُ اللاجِئينَ) مُعَانَاةَ اللاجِئينَ في تِلْـــكَ الخِيَامِ التي كَانَت رَمْزَاً لِلذُّلِّ والهَوَانِ ، فيقول :

وَصْمَةٌ أَنْتِ في جَبِينِ الدُّهُـــورِ يـــا خِيَاماً فِي القَفْرِ مِثْلَ القُبُورِ
يَا نَشَازَ الأَنْغَامِ يَا سُبَّةَ التَّارِيخِ وَالنـــَّاسِ فِي جَمِـــيعِ العُصُـــورِ
أَنتِ مَأْوَىً لِلبُؤْسِ شَيَّدَكِ الظُّلْمُ عَلَـــى رَسْـــمِ حَقِّنَـــا المَهْـــدُورِ
أَنْتِ سِفْـــرُ الآلامِ ســـطَّـــرَكِ البَغْـــيُ بِأَيْدٍ مَخْضُوبةٍ بِالشُّرُورِ
كَمْ حَوَى نَسْجُكِ الأَرَثّ عَزِيزًا يَسْفَحُ الدَّمْعَ فِي دُجَـــى الدَّيْجُورِ
رَاثِيـــاً عَيْشَه الكَرِيمَ وعَهْـــدًا قَـــدْ قَضَـــاهُ مُنَغَّصَاً فـــي القُصُورِ
يَومَ أَنْ كَانَ فِي الدِّيَارِ كَرِيمـــاً يَتَجَرَّعُ الكَأْسَ مِنْ مُـــدَامِ السُّرُورِ (2)

فَالشَّاعِرُ يَصِفُ الخِيَامَ بِأَنَّهَا وَصْمَةُ عَارٍ فِي جَبِينِ الذينَ تَخَاذَلُوا وتَقَاعَسُوا عَن حِمَايَةِ الفِلَسْطِينيينَ ونُصْـــرَتِهِم ، حَتَّى وَقَعُوا فَرِيسَةً لِلظُّلْمِ وَضَحِيَّةً لِلعُدْوَانِ ، فَتَبَدَّلَ عَيْشُهُمُ الكَرِيمُ ذُلاً وَهَوَاناً يَتَجَرَّعُونَه صَبَاحَ مَسَاء .

ويُخَاطِبُ (هَارُونُ هَاشِم رَشِيد) أَخَاهُ اللاجِئَ بِنَبْرَةٍ يَلُفُّهَا الحُزْنُ والأَسَى فِي قَصِيدةِ (صَوْتُ اللاجِئ) قَائِلاً :

أَخِي فِي الخَيْمَةِ السَّوداءِ فِي الكَهْـــفِ
أَخِي فِي الجُوعِ فِي التَّشْرِيدِ فِي الخَوْفِ
أَخِي فِي الحُزْنِ فِي الآلامِ فِي الضَّعفِ
....
أَخِي مَنْ نَحْنُ إنْ سِرْنَا بِلا وَطَن
وَإِنْ عِشْنَا عَلَى صَدَقَاتِ قَاتِلِنَا عَلَى المِنَن
وإِنْ جَارَ عَلَى الأَقْدَاسِ عَسَفُ الظَّالِمِ النَّتِن (3)

عَلَى أَنَّ المُخَيَّمَ والفَقْرَ والبُؤْسَ ، لَيْسَت إلا مُقَدِّمَاتٍ لِمَا يَلِي مِنْ فَوَاجِعَ وإِهَانَاتٍ وَإِرْهَاب . فَـــاللاجِئُ لَـــيْسَ مَنْسِيَّاً كَمَا قَدْ يَتَبَادَرُ إِلَى أَذْهَانِ حَتَّى المُتَشَائِمِينَ . إِنَّهُ فِي البَالِ كَمَطْلُوبٍ مُتَّهَمٍ بِلا تُهْمَةٍ . فَلَمْ يَعُدِ الأَمْرُ مُقْتَصِـــرَاً عَلَى الفَقْرِ والحِرْمَانِ ، بَلْ هُنَاكَ مَا هُوَ أَشَدُّ ، إِنَّهُ الخَوْفُ الذي يُحَاصِرُهُم مِن كلّ جِهّةٍ . ويَصِفُ مُعِينُ بْسِيسو فِي قَصِيدةِ (المُهَاجِرونَ) حَالَةَ الخَوْفِ والذُّعْرِ التي تَنْتَابُ اللاجِئينَ وأَطْفَالَهُم فِي الخِيَامِ ، وخَاصَّةً عِنْدَمَا يَحِـــلُّ اللَّيْـــلُ ويُخَيِّمُ الظَّلامُ ، فيقول :

أَخِي فِي الكِفَاحِ فِي العَذَابِ أَتَسْمَعُ مِثْلِي عُـــوَاءَ الذِّئَـــابِ

تُفْزِعُ أَطْفَالَنَــا النَّائِــمِينَ وتُنْــذِرُ أَحْــلامَهُمْ بِالْخَــرَابِ
وَيَفْتَحُ أَعْيُنَهُم فِــي الظَّلامِ دَوِيُّ الرَّصَاصِ وَلَمْعُ الحِرَابِ
وتَخْنُقُ صَرْخَاتِهِم كَالنُّجُومِ إِذَا خَرَقَتــهَا حِبَــالُ السِّحَابِ (4)

وإِذَا كَانَ أَمْثَالُ أَبِي سُلْمى وحَسَن البحيريّ قَدْ ذَاقُوا مَرَارَةَ الاقْتِلاعِ والتَّهْجِيرِ مُبَاشَرةً ، بِمُغَادَرَتِهِم حَيْفَا ويَافَــا ، فَإِنَّ آخَرِينَ أَمْثَالَ هَارُونَ هَاشِم رَشِيد ومُعِين بسِيسو وفَدْوى طُوقَان ويُوسُف الخَطِيب _مَثَلاً_ هُــمْ مِــنْ غَــزَّةَ ونَابُلُس والخَلِيل ، وهِيَ مُدُنٌ بَقِيَت فِي يَدِ العَرَبِ فِي الفَتْرَةِ مِنْ نَكْبَة 1948 إِلَى هَزِيمَةِ 1967. ولَكِنَّ هَذَا لا يَعْنِــي أَن زِلْزَالَ النَّكْبَةِ لَمْ يَعْصِفْ بِهِم ، وأَنَّ مَأْسَاةَ اللاجِئِينَ لَمْ تُزَعْزِعْهُم ، عَلَى أَنَّ أَشْعَارَهُم فِي ذَلِكَ لَمْ تَقِفْ عِنْدَ رَصْدِ لَحْظَةِ اللجُوءِ وتَصْوِيرِهَا ، بَلْ حَوَّلَت الخَيْمَةَ إِلَى رَمْزٍ لِلهَزِيمَةِ التي يَجِبُ تَجَاوُزُهَا .

وقَدْ أَخَذَ المُخَيَّمُ عِنْدَ (مُعِين بسيسو) شَكْلاً مِنْ أَشْكَالِ الحُزْنِ والغُربَةِ التي تَقْتُلُهُ بِصَمْتِهَا ، فَالبَقِيَّةُ البَاقِيَةُ مِــنْ شَعْبِه ومِنْ بَلَدِهِ تَمْتَزِجُ مَا بَيْنَ البُكَاءِ والجُنُونِ ، وأَكْيَاسِ (الخيش) التي يَسْكُنُهَا أَهْلُهُ وجِيرَانَه ، فَيَعْلُو صَوْتُ الشَّاعِرِ مُدَوِّيًا في وَجْهِ مَنْ جَاءَ يَسْأَلُ عَنْ أَطْفَالِ شَعْبِهِ وهُوَ السَّبَبُ فِي نَكْبَتِهِم . فيقول :

تِلْكَ البَقِيَّةُ مِن شَعْبِي وَمِنْ بَلَــــــدِي مَا بَيْــــنَ بَاكٍ ومَجْنُــونٍ ومُرْتَعِــد
تِلْكَ البَقِيَّةُ مِن شَعْبِي فَذَاكَ أَبِــــــــي وتِلْكَ أُمِّي ومَا فِي الخَيْشِ مِنْ أَحَــد
إِنْ جِئْتَ تَسْأَلُ عَنْ أَطْفَالِهَا صَرَخَــت وَقَهْــقَهَ السَّيْلُ لَمْ تَحْبَلْ وَلَمْ تَــلِــــد
يَا مَنْ نَصَبْتَ لَهُم سُودَ الخِيَامِ عَلَــى صِفْرِ الرِّمَــالِ لَقَدْ غَاصَت إِلى الأَبَــد
أَلَسْتَ جَلادَهُم فَارْبِطْ غَرِيقَــــــهُــم واسْحَبْهُ خَلْفَــكَ بِالأَمْرَاسِ وَالـــــزَّرَد
واتْرُكْ لأَطْفَالِهِ آثَارَ جُــــثَّــــتِــــهِ دَمَاً تَوَهَّـــجَ فَوْقَ الرَّمْلِ والــزَّبَــد (5)

ولنَقِفْ مَعَ (هَارون هَاشِم رَشِيد) وهُوَ يَلْتَقِطُ سُؤَالَ الطِّفْلِ الفِلَسْطِينِيّ البَرِيء المُتَوَجِّهِ إِلَى أَبِيهِ اللاجِئِ ، عَمَّا إِذَا كَانَت حَيَاتُهم هَذِه حَيَاةً حَقًّا ، مُسْتَغْرِبًا أَنَّهُم يَعِيشُونَ خِلافًا لِلآخَرِينَ ، غُرَبَاءَ مُشَرَّدِينَ :

لِمَاذَا نَحْنُ يَا أَبَتِــي لِمَاذَا نَحْنُ أَغْرَاب
أَلَيْسَ لَنَا بِهَذَا الكَوْنِ أَصْحَابٌ وَأَحْبَــاب ؟ (6)

ومِنَ الشُّعَرَاءِ مَنْ رَبَطَ بَيْنَ صُورَةِ الخِيَامِ المَنْصُوبَة فَوْقَ رِمَالِ الصَّحْرَاءِ وبَــيْنَ حَالَــةِ النُّــزُوحِ والغُرْبَــةِ والضَّيَاعِ التِي فُرِضَت عَلَى الفِلَسْطِينيين . يَقُولُ (يُوسُف الخَطِيب) :

عَلَى الرِّمَالِ نَازِحُونَ .... نَازِحُونْ
وفِي مَجَاهِلِ القِفَــارِ .... نَازِحُونْ
كَمَا يُوقِعُ السِّحَابَ فِــي السُّــكُونْ
رِثَاءَ أَرْضِــنَا الخَصِــيبَةِ الحَنُونْ
وفِي مَدَارِ الأُفْقِ تَســرَحُ الظُّنُونْ

أَنَازِحُونَ... نَازِحُون... نازحون (7)

إِنَّها صُورَةٌ وَاضِحَةٌ وُضُوحَ كَلِمَاتِها التِي تُحَاكِي المَأْسَاةَ والنُّزُوحَ والأَلَمَ والضَّـيَاعَ ، والتَّشـتُّتَ فِـي القِفَـارِ والصَّحَارِي الحَارَّة .

وقَرِيبًا مِنْ الصُّورَة السَّابِقَة ؛ فَإِنَّ لِخِيَام اللاجِئِينَ صِفَاتٍ أَشْبَه مَا تَكُونُ بِمَظَاهِرِ الحَيَاةِ البَدَوِيَّـةِ فِـي حِلِّهَـا وتَرْحَالِها ، خَيْمَةٌ وَأَوْتَادٌ وَنُقُوشٌ عَلَى السَّقْفِ تُشْبِهُ _إِلى حَدٍّ بَعِيدٍ_ حَيَاةَ القُصُور . وَهَذَا هُـو (مُرِيـدُ البَرْغُـوثِيّ) يُصوِّرُ حَالَةَ البُؤْسِ التِي يَعِيشُهَا اللاجِئونَ فِي الخِيَام ، فِي سُخْرِيَةٍ بَاطِنُها الأَسَى وَالحَسْرَةُ : أَوْتَادُهـا مِـنْ مَرْمَـرٍ ورُخَام ، وَمُخْمَلٍ يُغَطِّي الحَوَائِطَ ، وَصُورُ شَهَادَاتٍ جَامِعِيَّةٍ مُعَلَّقَة عَلَى قُمَاشِهَا ، وصُوَرٌ لأَشْهَرِ الفَنَّانينَ :

خِيَامٌ خِيَامْ .
خِيَامٌ مِنَ الحَجَرِ المُسْتَرِيح ،
وَأَوْتَادُها مَرْمَرٌ أَوْ رُخَام .
نُقُوشٌ عَلَى السَّقْفِ ،
وَالوَرَقُ المُخْمَلِيُّ يُغَطِّي الحَوائِط ،
وَالصُّوَرُ العَائِلِيَّة وَالجُيُوكَانْدا
تُحَاذِي حِجَابًا لِرَدِّ الحَسُود ،
بِقُرْبِ شَهَادَةِ ابْنٍ تَخَرّجَ فِي الجَامِعَة_
إِطَارَاتُها ذَهَبٌ يَعْتَلِيهِ الغُبَار . (8)

وَمَاذَا عنِ الخِيَامِ فِي فَصْلِ الشِّتَاءِ ؟ لِنَبْقَ مَعَ (مُعِين بْسِيسُو) وَهُوَ يَلْتَقِطُ لَنَا صُورَةً لِخِيَامِ اللاجِئِينَ وَهِي تَتَهَـاوَى وتَنْهَارُ أَمَامَ السُّيُول ، تَارِكةً أَهْلَهَا عَرَايَا أَو مَوْتَى ، فَيَقُولُ فِي قَصِيدَةِ (السُّيُول) :

لَمْ يَتْرُكِ السَّيْلُ غَيْرَ الحَبْلِ وَالوَتَد ... مِـن ذَلِكَ الشَّعْبِ أَو مِن ذَلِكَ البَلَدِ
وَغيرَ بَعْضِ العَرَايَا السَّاحِبِينَ عَلَى ... تِلْكَ الوُحُـولِ بِقَايَاهُم مِنَ الوَلَـدِ
وَغَيْرَ مَا شَاهَدَتْ عَيْنَاكَ مِن جُثَثٍ ... مَنْفُوخَـةٍ لَمْ تَزَلْ مَجْهُولَةَ العَـدَدِ
هُنَا حُطَامٌ ، هُنَا مَوْتٌ ، هُنَا غَرَقٌ ... هُنَـا بَقَايَـا رَغِيـفٍ عَالِقٍ بِيَـدِ (9)

إِنَّهَا صُورَةٌ حَافِلَةٌ بِمَشَاهِدِ المُعَانَاة : تَشْرِيدٌ ، وذُعْرٌ ، وبَرْدٌ ، وغَرَقٌ ، ومَوْتٌ ، وجُثَثٌ مَجْهُولَةُ العَدَد وَالأَسْمَاء تَمْلأُ المَكَانَ ، إِنَّهَا _بِحَقّ_ مُعَانَاةٌ مُرَكَّبَةٌ مُتَعَدِّدَةُ الأَشْكَال ، لَقَدْ أَصْبَحَ اللاجِئُونَ حَيَارَى لا دَلِيلَ لَهُم ، عَلَـيهِمُ مِـنْ ثِيَابِ الذُّلِّ أَلْوَانُ .

وَمَاذَا بَعْدَ الخِيَامِ ؟! مُخَيَّمَاتٌ بَائِسَة ، وَلاجِئُونَ يُمَزِّقُ قُلُوبَهُمُ الأَسَى ، وَيَعْضُّ بُطُونَهُمُ الجُوعُ . وتَصِفُ (وِدَادُ البَرْغُوثِيّ) حَيَاةَ الجُوعِ والحِرْمَانِ التِي يَعِيشُها اللاجِئُونَ فِي المُخَيَّماتِ فِي قَصِيدَتِها (أَنَـا والمُخَـيَّمُ والقَضِـيَّة) ، فَتَقُول:

يَشْكُو المُخَيَّمُ لِلمُخَيَّمِ ، لِلجَوامِعِ ، لِلكَنَائِسِ لِلقِبَاب
أَلَمٌ يُمَزِّقُ قَلْبَهُ المَوْجوعَ مِنْ زَمَنِ العَذَاب
طِفْلٌ يَجُوعُ فَيَنْبِشُ التَّارِيخَ يَبْحَثُ
عَنْ فُتَاتٍ كَيْ يَسُدَّ الجُوع (10)

فَقَد رَسَمَتِ الشَّاعِرةُ فِي المَقْطَعِ السَّابِقِ صُورَةً صَادِقَةً لِوَاقِعِ المُخَيَّمِ ، فَكَلِمَةُ (مُخَيَّم) فِي قَامُوسِ الفِلَسْطِينيينَ تَعْنِي البُؤْسَ والمُعَانَاةَ ، فَالمُخَيَّمَاتُ تَشْكُو لِلمُخَيَّمَاتِ بُؤْسَها وَفَقْرَها ، تَشْكُو لِلجَمَادَاتِ مِنْ حَوْلِها عَلّهَا تَجِدُ آذَانَاً صَاغِيَة بَعْدَ أَنْ صُمّت آذَانُ الأَحْيَاءِ عَنْ الاسْتَجَابَةِ صَيْحَاتِ الأَيْتَامِ والجِيَاعِ وآهَاتِهِم فِي مُخَيَّمَاتِ البُؤْسِ والحِرْمَان .

كَمَا ارْتَبَطَت كَلِمَةُ المُخَيَّمِ فِي الذَّاكِرةِ بِالبُيُوتِ التِي بُنِيَت بِالصَّفِيحِ وسُقِفَت بِالقَرْمِيدِ أَو الطِّين ، وَرُغْمَ التَّغَيُّرِ الذي طَرَأَ عَلَى شَكْلِ المُخَيَّمِ فِي السَّنَواتِ الأَخِيرةِ إِلا أَنَّه ظَلَّ يَحْتَفِظُ بِكَثِيرٍ مِنْ سِمَاتِ البُؤْسِ والمُعَانَاةِ التي لازَمَتْ المُخَيَّم . يَقُول (هَايل عَسَاقلة) :
يَأْتِي أَبُونَا فِي غَدٍ
قَبْلَ طُلُوعِ الفَجْرِ مِن
مُخَيَّمِ القَرْمِيدِ وَالصَّفِيح ... (11)

فَالمُعَانَاةُ فِي المُخَيَّمَاتِ _إِذَن_ لَهَا وَجْهَانِ أَو صُورَتَانِ : الأُولَى هِيَ المُعَانَاةُ فِي الزَّمَان ؛ حَيْثُ يَخْرُجُ اللاجِئُ قَبْلَ طُلُوعِ الفَجْرِ يَبْحَثُ عَن لُقْمَةِ عَيْشٍ يَسُدُّ بِها رَمَقَ أَطْفَالِهِ الجِيَاع ، ويَعُودُ فِي المَسَاءِ وَهُمْ نَائِمُون . أَمَّا الصُّورَةُ الثَّانِيَة فَهِيَ المُعَانَاةُ فِي المَكَانِ الذِي يَقْطُنُهُ هَذَا اللاجِئُ مُكْرَهَاً ، فَهُو إِمَّا مِنَ القَرْمِيدِ أَوِ الصَّفِيحِ الذِي لا يَقْوَى عَلَى الصُّمُود فِي وَجْهِ العَوَاصِفِ والأَمْطَارِ والسُّيُولِ التِي قَدْ تُحَاصِرُهُ مِنْ كُلِّ جَانِب .

كَمَا جَعَلَ العَدُوُّ مِنْ شَوَارِعِ المُخَيَّمَاتِ سَاحَاتِ تَعْذِيبٍ يُسَامُ فِيهِ الفِلَسْطِينيُّونَ أَشَدَّ العَذَاب ؛ حَيْثُ اسْتَخْدَمَ سِيَاسَةَ سَدِّ الشَّوَارِعِ بِالكُتَلِ الإِسْمَنْتِيَّةِ ، كَنَوْعٍ مِنَ العِقَابِ الجَمَاعِيّ ، لِلاجِئِينَ خلال الانْتِفَاضَةِ الأُولَى . يَقُول (سَمِيح فَرَج) فِي قَصِيدةِ (لا تَعْتَرِفْ) :

سُدُّوا الشَّوارِعَ
والمَنَافِذَ ..
سَيِّجُوا مِنَّا الشِّفَاه (12)

أَمَّا (فَدْوى طُوقان) فَتَنْقِلُنَا إِلى مَشْهَدٍ آخَرَ مِنْ مَشَاهِدِ المُخَيَّم ، وهُو مَشْهَدِ العِيد ، فَتَقُول :
أُخْتَاهُ هَذَا العِيدُ رَفَّ سَنَاهُ فِي رُوحِ الوُجُودِ

وأَشَاعَ فِي قَلْبِ الحيَاةِ بَشَاشةَ الفَجْرِ السَّعِيدِ
وأَرَاكِ مَا بَينَ الخِيامِ قبعتِ تِمْثَالاً شَقِيًّا
مُتَهَالِكاً ، يطْوِي وَرَاءَ هُمُودِهِ أَلَماً عَتِيًّا
يَرْنُو إِلَى اللاشَيْءِ مُنْسَرِحاً مَعَ الأُفُقِ البَعِيد (13)

فَالأَطْفَالُ يَنْتَظِرُونَ العِيدَ ويُحَضِّرونَ أَنْفُسَهُم لَه ، إِلا أَنَّ العِيدَ فِي المُخَيَّمِ لا يُشْبِهُ العِيدَ فِي الوَطَنِ ، وإِنَّمَا هُو عِيدٌ تُحيطُ بِهِ الخِيامُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، فَبِأَيِّ حَالَ عَادَ العِيدُ عَلَى اللاجِئينَ فِي المُخَيَّم ؟!

أَمَّا (سَعِيدُ العِسَى) فيُعَبِّرُ عَنْ مشَاعِرِ اللاجِئِ الحَزِينَة وتَسَاؤُلاتِهِ الحَائِرَة في العِيدِ ، فِي قَصِيدَةٍ عُنْوانُهَا (العِيد)، فَيَقُول :

العِيدُ مَا العِيدُ مَا بِالْعِيدِ لِي شأنٌ دُنْيَايَ مَسْغَبةٌ ، دُنْيَايَ حِرْمَانُ
تَاهَت خُطَايَ عَلَى دَرْبِ الشَّقَا فَأَنَا سيَّانِ عِنْدِي أَفْرَاحٌ وَأَحْزَانُ
مَاذا مَعَ العِيدِ إلا حُرْقَةٌ وَأَسىً أَوْ ذِكْرَيَاتٌ وَأَشْوَاقٌ وَتَحْنَانُ
لا العِيدُ عِيدٌ كَمَا قَد كُنْتُ أَعْهَدُه بِالأَمْسِ كَلا ولا الأَوْطَانُ أَوْطَانُ (14)

فَالعِيدُ فِي المُخَيَّمِ غَريبٌ عَلَى اللاجِئينَ ، عِيدٌ مُثْقَلٌ بِالهُمُوم والأَحْزَانِ ، عِيدٌ يَستَدْعي الذِّكْرَيَاتِ الأَلِيمَة ، ويُشْعِلُ الأَشْوَاقَ في النُفُوسِ الجَرِيحَة .

المِحْوَرُ الثَّانِي : المُخَيَّمُ رَمْزُ المُعَاناةِ والمَوْت :

كَانَ جُرْحُ الهِجْرَةِ والنُّزُوحِ مِنَ الوَطَنِ- ولا يَزَالُ – هُوَ الأَعْمَقَ وَالأَكْثَرَ إِيلامًا ، لَدَى الشَّاعِرِ – وغَيْرِ الشَّاعِرِ– الفِلَسْطِينِيّ . وإِذَا كَانَ فِيهِ مَهَانَةٌ وَطَنِيَّةٌ وقَوْمِيَّةٌ ، فَإِنَّ فِيهِ – بِالإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ – أَلَمًا وَاقِعِيًّا مَلْمُوسًا يَتَعَلَّقُ بِتَبِعَاتِ المَنْفَى . فَاللاجِئُ الفِلَسْطِينِيُّ لَيْسَ مُجَرَّدَ مُوَاطِنٍ خَسِرَ أَرْضَهُ ولَوْ إِلَى حِينٍ ، بَلْ إِنَّه بِخَسَارَةِ الأَرْضِ خَسِرَ أَمَانَهُ الشَّخْصِيّ ، فَلَمْ تَقْتَصِرْ مُعَانَاةُ اللاجِئينَ عَلَى الفَقْرِ والجُوعِ ، بَلْ كَثِيرًا مَا كَانَت المُخَيَّماتُ مَسْرَحاً لِلقَتْلِ وَسَلالاتِ الدِّمَاءِ التِي تَنْزِفُ مِنْ أَجْسَادِ اللاجِئينَ عَلَى أَيْدِي جُنُودِ الاحْتِلالِ ، فَتَمْلأُ حَارَاتِ المُخَيّمِ وأَزِقَّتَهُ . تَقُول (وِدَادُ البَرْغُوثِيّ) :

يَشْكُو المُخَيَّمُ لِلمُخَيَّمِ مِنْ جِرَاحٍ تُؤْلِمُه
يَشْكُو المُخَيَّمُ مِنْ دِمَاءٍ تَمْلأُ
الحَارَاتِ مَنْ يُوقِفُهَا ... ؟ (15)

وفِي حَدِيثِهِ عَنْ مَظَاهِرِ الإِرْهَابِ والبَطْشِ التِي يُمَارِسُها المُحْتَلُّ بِحَقِّ الشَّعْبِ الفِلَسْطِينِيّ . يَقُولُ (سَمِيحُ القَاسِمِ) فِي قَصِيدةِ (أَطِلُّوا واصْغُوا) :

إِلَى أَيْنَ تَمْضُونَ بِالأَرْجُلِ الدَّامِيَة ؟!
إِلَى أَيْنَ تَمْضُونَ ، نَعْشًا عَلَى ظَهْرِ نَعْش

وَبَطْشًا عَلَى أَثَرِ بَطْش
وطَيْشًا عَلَى أَثَرِ طَيْش
وجَيْشًا بِشِعْب
وشَعْبًا بَجَيْش
إِلَى أَيْنَ تَمْضِي الهُرَاوَاتُ والخُوَذُ الكَابِية
إِلَى أَيْنَ تُفْضِي قَنَابِلُ غَازِكُم الشَاتِية (16)

كَمَا اهْتَمَّ الشُّعَرَاءُ بِتَصْوِيرِ المُعَانَاةِ فِي شَوَارِعِ المُخَيَّمِ ؛ بِوَصْفِهَا أَكْثَرِ الأَمَاكِنِ بُرُوزَاً فِي المَشْهَدِ، فَفِي الشَّارِعِ تَبْدُو المُعَانَاةُ فِي أَوْضَحِ صُوَرِهَا ، فشارع المُخَيَّمِ هُوَ مَيْدَانُ المُوَاجَهَاتِ مَعَ العَدُوّ ؛ وفِي شَوَارِعِ المُخَيَّمِ يَسْقُطُ الشُّهَدَاءُ وَالجَرْحَى، والأَخْطَارُ –بِكُلِّ أَشْكَالِهَا– تُحِيطُ بِاللاجِئِينَ فِي شَوَارِعِ المُخَيَّمِ ، وَالمَوْتُ يَنْتَظِرُ اللاجِئِينَ فِي شَوَارِعِ المُخَيّمِ . يَقُولُ (يُوسُف حَامِد) :
تُطِلُّ عَلَى الشَّارِع
حَيْثُ الشَّارِعُ
كَانَ بَعِيدًا
فِي المَوْت (17)

فَشَارِعُ المُخَيَّمِ – كَمَا أَرَادَهُ العَدُوُّ– هُوَ شَارِعُ العَذَابِ والمَوْتِ ، المَوْتُ الذِي يُلاحِقُ الفِلَسْطِينِيينَ ويُطَارِدُهُم فِي كُلِّ مَكَان . يَقُولُ (سَمِيحُ القَاسِم) :
تَقَدَّمُوا
مِنْ شَارِعٍ لِشَارِع
مِنْ مَنْزِلٍ لِمَنْزِل
مِنْ جُثَّةٍ لِجُثَّة (18)

فَالمَوْتُ –هُنَا– هُوَ التَّضْحِيَةُ مِنْ أَجْلِ الوَطَن ، وَالمَوْت هُوَ الحَيَاة ، " فَاللحْظَةُ التِي يُجَابِهُ فِيهَا الإِنْسَانُ المَوْتَ هِيَ اللَّحْظَةُ التِي يَبْلُغُ فِيهَا ذُرْوَةَ إِحْسَاسِهِ بِكَيَانِهِ وَوُجُودِهِ ، ولِذَا نَجِدُ أَنَّ التَّفْكِيرَ فِي المَوْتِ مُلازِمٌ دَائِمًا لِمِيلادٍ جَدِيد " (19) .

أَمَّا (عبدُ اللَّطِيفِ عَقْل) ، فَيَرَى المُخَيَّمَ فِي حَالَةٍ مِنَ الثَّبَاتِ والجُمُودِ ، وَهُوَ فِي حَالَةِ حِصَارٍ وخَوْفٍ ، مُخَيَّمٌ يَنَامُ بَاكِرًا خَشْيَةَ القَتْلِ والمَوْتِ ، وهَذَا يُذَكِّرُنَا بِحِصَارِ المُخَيَّمَاتِ الفِلَسْطِينِيَّةِ فِي لُبْنَانَ ، ومُخَيَّمَاتِ الضِّفَّةِ والقِطَاعِ ، فِي صُورَةٍ مُؤْلِمَةٍ ، فَكَمِ اخْتَلَطَ اللَّحْمُ بِالفَحْمِ ، وَزَيْتُ الطَّعَامِ بِالمَوْتِ ، والعُيُونُ اليَقِظَةُ بِالقَبْوِ الحَالِكِ السَّوَاد :
يَنَامُ المُخَيَّمُ ،
لا وَقْتَ لِلنَّوْمِ ، لا نَوْمَ لِلْوَقْتِ ،

تَخْتَلِطُ الأُمُّ بِالطِّفْلِ واللَّحْمُ بِالفَحْمِ
وَالزَّيْتُ بِالمَوْتِ ، والصَّحْوُ بِالقَبْوِ
واللَّيْلُ بِالوَيْلِ فَلْيَتْعَبِ الخَوْفُ مِنْ شِدَّةِ الخَوْفِ
ولْيَتْعَبِ السَّيْفُ مِنْ صَدَأ السَّيْفِ ولْيَتْعَبِ الوَقْت ،
إِنَّ الحَضَارَةَ تَتْعَبُ مِنْ رُوحِهَا المُتْعَبَة (20)

فَالنَّوْمُ يُصْبِحُ حَالَةً مِنَ اللامَعْقُول واللاشُعُور ، وهَذِهِ حَالَةٌ تَعْكِسُ حَيَاةَ المُخَيَّمِ ، بَلْ حَيَاةَ الفِلَسْطِينِيينَ جَمِيعاً ، فِي ظِلِّ حَرَكَةِ الأَحْدَاثِ التِي تَؤُولُ جَمِيعُها إِلَى القَتْل ، فَالشَّوارِعُ مَسْكُونَةٌ بِالرَّصَاصِ ، والزَّوَايَا مَلِيئَةٌ بِالقَنْصِ ، والبُيُوتُ مَلِيئَةٌ بِالمَوْت ، فَمَنْ لا يَمُوتُ يَمُوت ، يَنَامُ المُخَيَّمُ ، لا يَنَامُ المُخَيَّم :

يَنَامُ المُخَيَّم ،
لَيْسَ يَنَامُ المُخَيَّمُ ، إِنْ أَيْقَظَ الجُوعُ
وَعْيَ الصَّفِيحِ ، سَيَصْطَبِغُ الشَّرْقُ بِالعَارِ والدَّمِ ،
إِنَّ البُطُولاتِ تَبْدَأُ فِي الرَّحِمِ ،
والأَرْضُ حِينَ تُلاقِحُ فِعْلَ السَّمَاءِ ،
سَتُوْرِقُ أَغْصَانُهَا الطَّيِّبَةُ
....
يَقُومُ المُخَيَّمُ
إِنَّ القِيَامَةَ عِشْقٌ
وإِنَّ الحَمَامَاتِ مِنْ سُورِ عكَّا
إِلَى سُورِ صَيْدَا قَسَا رِيشُهَا كَالمَسَامِيرِ (21)

فَالمُخَيَّمُ فِي وَعْيِ الشَّاعِرِ بَدَأَ يَتَحَوَّلُ إِلَى عَقِيدَةٍ ، والعَقِيدَةُ تَتَمَثَّلُ أَمَامَنَا صُورَةً فَنِّيَّةً يُجَسِّدُهَا بِرِيشَةٍ مِنْ خَنَاجِرَ تَرْسُمُ بِالطَّعْنِ فِي الخَاصِرَة ، كَمَا تُعَرِّي وتَكْشِفُ وتُحَقِّقُ وتُشَكِّلُ ، هَذِهِ خُطْوَةٌ مُهِمَّةٌ فِي تَطَوُّرِ الصُّورَةِ الشِّعْرِيَّةِ فِي وَعْيِ الشَّاعِرِ أَوَّلاً ، ثُمَّ فِي فَنِّه .

وتُعَبِّرُ (سُلافة حِجَّاوي) عَنْ حَالَةِ الخَوْفِ والذُّعْرِ مِنَ الرَّصَاصِ الذِي يُدَوِّي فِي أَجْوَاءِ المُخَيَّم صَبَاحَ مَسَاء ، فَتَقُول :

سُتُّونَ عَاماً قَدْ مَضَت
ولَمْ أَزَلْ
أُحَاوِرُ الرَّصَاصَ
فَقَدْ وُلِدْتُ بَيْنَمَا كَانَ الرَّصَاصُ
يَطِيرُ فِي سَمَاءِ بَلَدِي
مِنْ فَوْق رَأْسِ أُمِّي

كَأَنَّهُ فَرَاشٌ
وإِذَا شَبَبْتُ
شَبَّ مَعِيَ الرَّصَاصُ
وَعِنْدَمَا ارْتَحَلْتُ
ظَلَّ الرَّصَاصُ
يَتْبَعُنِي يَسْبِقُنِي (22)

إِنَّ تَكْرَارَ لَفْظَةِ الرَّصَاصِ فِي الأَبْيَاتِ السَّابِقَة يَعْكِسُ الشُّعُورَ بِالخَوْفِ والذُّعْرِ اللّذَيْنِ يَعِيشَانِ مَعَ اللاجِئِ الفِلَسْطِينِيِّ طِيلَةَ حَيَاتِهِ ، فِي يَوْمِهِ ولَيْلِهِ ، ويُلازِمَانِه فِي كُلِّ مَكَانٍ ، ولَقَدْ جَعَلَتِ الشَّاعِرَةُ الرَّصَاصَ شَبَحَاً يُطَارِدُهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ ، فَقَدْ عَرَفَتْهُ فِي قَرِيَتِهَا قَبْلَ النُّزُوحِ ، ثُمَّ لاحَقَهَا فِي المُخَيَّمِ بَعْدَ النُّزُوح .

تَتَجَلَّى بُنْيَةُ التَّكْرَارِ فِي الأَسْطُرِ السَّابِقَةِ بِتَكْرَارِ اللَّفْظِ الذِي يَنْتَهِي بِهِ السَّطْرُ –وهُوَ الرَّصَاصُ– فِي تَرَاكِيبَ أَرْبَعَةٍ مُنَوَّعَةٍ ، ويَبْدُو هَذَا التَّكْرَارُ لِلْوَهْلَةِ الأُولَى مُتَكَلَّفًا لا يُضِيفُ جَدِيدًا إِلَى النَّاتِجِ الدِّلالِيِّ بِحَيْثُ يُمْكِنُ لِلمُتَلَقِّي أَنْ يَتَصَوَّرَ حَذْفَ اللَّفْظِ مِنَ التَّرْكِيبِ الأَوَّلِ مُكْتَفِيًا بِصُورَتِهِ المُكَرَّرَةِ فِي التَّرْكِيبِ التَّالِي لَهُ . ولَكِنَّ النَّظْرَةَ المُتَأَنِّيَةَ لِلْبُنْيَةِ التَّكْرَارِيَّةِ ، تَكْشِفُ عَنْ تقنية فَنِّيَّة قَصَدَتْهَا الشَّاعِرةُ ، لِيَجْعَلَ مِنْ المَقْطَعِ الشِّعْرِيِّ _بَلْ مِنَ القَصِيدَةِ كُلِّهَا_ بُنْيَةً مَشْدُودَةَ الأَطْرَافِ مُتَمَاسِكَةَ الأَجْزَاءِ .

وَقَدْ نَجَحَ شُعَرَاءُ فِلَسْطِينَ بِرُؤْيَتِهِم البَعِيدَةِ أَنْ يَرْسُمُوا لَنَا صُورَةً مُبْتَكَرةً لِلْمَوْتِ وَالآلامِ والجِرَاحِ ، تِلْكَ الصُّورَةُ التِي اقْتَرَنَتْ فِي ذَاكِرَةِ المُخَيَّمِ بِالصُّورَةِ البَشِعَةِ لِلْعَدُوّ ، فَجَاءَتْ أَعْمَالُهُم صَادِقَةً مُعَبِّرَةً نَاطِقَةً بِمَشَاهِدِ المُعَانَاةِ والأَلَمِ التِي كَانَت وَاقِعَاً يَوْمِيًّا قَاسِيًا ، فَقَدْ وَصَفَ (مُنِيبُ فَهْد الحَاج) مَظَاهِرَ العَذَابِ والأَلَمِ التِي يَعِيشُها الشَّعْبُ الفِلَسْطِينِيّ بِسَبَبِ مُمَارَسَاتِ العَدُوّ فِي شَكْلِ مرافعة حَادَّةٍ لِقُضَاةِ العَالَمِ ، قَائِلاً :

يَا حَضَرَاتِ قُضَاةِ العَالَم
إِنِّي آتِيكُمْ بِتُرَابٍ
مِنْ بَعْضِ حُقُولِي المَسْرُوقَةِ
إِنِّي آتِيكُمْ بِرَمَادٍ
مِنْ بَعْضِ قُرَايَ المَحْرُوقَةِ
آتٍ بِعَظَامٍ مَكْسُورَةٍ
آتٍ بِأَيادٍ مَبْتُورَةٍ
آتٍ بِأُنُوفٍ مَجْدُوعَةٍ
آتِيكُمْ مَخْطُوفَ البَسْمَةِ
مَسْلُوبَ الفَرْحَةِ والأَعْيَادِ
إِنِّي آتٍ ويَدَايَ مُكَبَّلَتَانِ بِقَيْدٍ

إنِّي آتٍ ...
وعَلَى جِلْدِي آثَارُ الجَلْدِ (23)

فَقَدْ عَمَدَ الشَّاعِرُ فِي المَقْطَعِ السَّابِقِ إِلَى رَفْعِ مُسْتَوَى المُعَانَاةِ مِنْ مُسْتَوَاهَا المَحَلِّيّ ، أَوْ مَا يُمْكِنُ تَسْمِيَتَهُ العَذَابَ الوَطَنِيّ ، إِلَى مُسْتَوَىً عَالَمِيٍّ يَنَالُ اهْتِمَامَ الجَمِيعِ ، وقَدْ اسْتَغَلَّ الشَّاعِرُ طَاقَتَهُ الإِبْدَاعِيَّةَ فِي إِبْرَازِ هَذَا الجَانِبِ، لِيُؤَدِّيَ مِنْ خِلالِهِ وَظِيفَةً إِعْلامِيَّةً مَقْصُودَةً لذَاتِهَا ، إِلَى جَانِبِ الوَظِيفَةِ الجَمَالِيَّةِ التِي تَتَوَفَّرُ لِكُلِّ عَمَلٍ إِبْدَاعِيٍّ . وقَدْ نَجَحَ الشَّاعِرُ فِي اسْتِثْمَارِ طَاقَاتِ التِّكْرَارِ اللُّغَوِيّ لاسْمِ الفَاعِلِ (آتٍ) فِي إِبْرَازِ مَظَاهِرِ الأَسَى التِي تَعْصِفُ بِوُجْدانِ الشَّاعِرِ وشَعْبِهِ ، ثُمَّ تَتَحوَّلُ إِلَى صَرَخَاتٍ هَادِرَةٍ بِكُلِّ مَعَانِي العَذَابِ والأَلَمِ . إِنَّهَا دِرَامَا مَأْسَاوِيَّةٌ زَاخِرَةٌ بِالدِّلالَةِ مِنْ أَوَّلِ المَقْطَعِ إِلَى آخِرِهِ ، وهَكَذَا سَاعَدَ تِكْرَارِ اسْمِ الفَاعِلِ (آتٍ) عَلَى إِثْرَاءِ دِلالَةِ النَّصِّ ، والإِلْحَاحِ فِي التَّأْثِيرِ .

إِذَا تَأَمَّلْنَا النَّمَاذِجَ الشِّعْرِيَّةَ السَّابِقَةَ وَجَدْنَاهَا حَافِلَةً بِالأَسَالِيبِ التِي تُثْرِي الدِّلالَةَ ، وتَخْرِقُ اللُّغَةَ وتَكْسِرُ رتَابَتَهَا وتَتَجَاوَزُ مَنْطِقَها ؛ لِتَكُونَ قَادِرَةً عَلَى اسْتِحْضَارِ الحَدَثِ ، وإِبْرَازِ أَشْكَالِ المُعَانَاةِ التِي يَعِيشُهَا اللاجِئُونَ فِي المُخَيَّمَاتِ ، فَـ" لِكُلِّ أَدَاءٍ لُغَوِيٍّ فَاعِلِيَّةٌ مُتَجَدِّدَةٌ دَاخِلَ بِنَاءِ القَصِيدَةِ ، وهَذِهِ الفَاعِلِيَّةُ تَخْلُقُ عِدَّةَ عِلاقَاتٍ مُتَدَاخِلَةٍ مُتَضَامِنَةٍ تَتَنَوَّعُ فِي تَيَّارَاتٍ لا تُدْرَكُ مُنْفَصِلَةً ، وإِنَّمَا تَنْبَثِقُ شُكُولُهَا مِنْ خِلالِ الدَّالاتِ اللُّغَوِيَّةِ ، وبِوَاسِطَةِ تَتَابُعِ المُعْطَيَاتِ الإِيحَائِيَّةِ " (24) .

المِحْوَرُ الثَّالِثُ : المُخَيَّمُ رَمْزُ الصَّبْرِ والصُّمُودِ :

إِنَّ حَالاتِ العَذَابِ والأَلَمِ التِي حَلَّتْ بِالفِلَسْطِينِيِّينَ عَلَى أَيْدِي الغُزَاةِ ، كَانَت دَافِعَاً قَوِيًّا لإِعْلانِ الصُّمُودِ فِي وَجْهِ الظُّلْمِ ومُمَارَسَاتِ القَمْعِ ، وتَحَدِّي كُلِّ أَسَالِيبِ العَدُوّ التِي تَسْعَى إِلَى إِخْمَادِ صَوْتِ الحُرِيَّة ، وتَرْسِيخِ الوَاقِعِ الأَلِيم .

ومِمَّا يُلاحَظُ أَنَّ سِيَاقَاتِ هَذَا المِحْوَرِ قَدْ شَاعَت فِي مُخْتَلَفِ مَرَاحِلِ العَمَلِ الأَدَبِيِّ الفِلَسْطِينِيِّ ؛ فَقَدْ غَطَّت الأَلْفَاظُ الدَّالَّةُ عَلَى الصُّمُودِ مَسَاحَاتٍ وَاسِعَةً مِنْ قَصَائِدِ الشِّعْرِ الفِلَسْطِينِيِّ التِي عَالَجَت قَضِيَّةَ اللاجِئِينَ . فَالبِدَايَةُ كَانَت فِي المُخَيَّمِ ، والانْطِلاقَةُ كَانَت مِنَ المُخَيَّمِ ؛ حَيْثُ أَصْبَحَ المُخَيَّمُ رَمْزَاً لِلصُّمُودِ فِي وَجْهِ الظُّلْمِ ، فِيهِ يَتَجَسَّدُ الصِّرَاعُ بَيْنَ الحَقِّ والبَاطِلِ . يَقُولُ (خَلِيل زَقْطَان) فِي قَصِيدةِ (قَسَمَاً بِجُوعِ اللاجِئِينَ) :

أَنَا فِي ظِلالِ الوَاقِعِ المَشْحُونِ بِالأَرْزَاءِ أَحْيَا
أَنَا رَغْمَ آلامِي الجِسَامِ غَدَوْتُ أَطْوِي اليَأْسَ طَيَّا
وأَقُودُ آمَالِي عَلَى أَشْلاءِ حُلْمٍ كَانَ غَيَّا
أَنَا مَنْ أَنَا إِلا الذِي رَغْمَ النَّوائِبِ ظَلَّ حَيَّا (25)

فَالشَّاعِرُ يُعْلِنُ صُمُودَهُ وتَمَسَّكَهُ بِحَقِّهِ فِي الحَيَاةِ والوُجُودِ ، رَغْمَ الوَاقِعِ المَشْحُونِ بِالأَرْزَاءِ والآلامِ والقَهْرِ المُمَنْهَجِ ، وسَيَصْنَعُ مِنْ آلامِهِ قِنْطَرَةً يَعْبُرُ بِها إِلَى الأَمَلِ المَنْشُودِ .

ويُؤَكِّدُ (سَميحُ فَرَج) صمُودَهُ فِي مُخَيَّمِهِ رَغْمَ قَسْوَةِ الجَلادِ ، فَيَقُولُ :

فَوْقَ المُخَيَّمِ صَامِدُونَ
تَحْتَ المُخَيَّمِ صَامِدُونَ
بَيْنَ السَقِيفَةِ والسَّقِيفَةِ
بَيْنَ الهُرَاوَةِ والهُرَاوَة (26)

وإِذَا وُجِدَ الأَمَلُ وُجِدَتِ الحَيَاةُ ؛ حَيْثُ صَارَ المُخَيَّمُ عُنْوَانًا لِلْحَيَاةِ المُتَجَدِّدَةِ ، رَغْمَ الحِصَارِ والمَوْتِ ، فَمِنْ رَحِمِ الظَّلامِ يُوْلَدُ الفَجْرُ ويَنْبَثِقُ الصَّبَاحُ . يَقُولُ (أَحْمَد دَحْبُور) فِي قَصِيدَةِ (لا أُفَرِّطُ بِالجُنُونِ) :

إِنَّ العَدُوَّ هُوَ العَدُوُّ
هَذَا الجَرَادُ هُوَ العَدُوُّ
هَذَا الحِصَارُ هُوَ العَدُوُّ
مَا الفَرْقُ بَيْنَ المِدْفَعَيْنِ تَقَاسَمَا مَوْتَ المُخَيَّمِ ؟
المُخَيَّمُ لا يَمُوتُ (27)

وانْظُرْ إِلَى رَبَاطَةِ جَأْشِ (مُعِين بْسِيسو) ، وَهُوَ يَشُدُّ مِنْ أَزْرِ أَخِيهِ الفِلَسْطِينِيِّ ، ويُذْكِي فِي نَفْسِهِ رُوحَ العِزَّةِ والصُّمُودِ فِي وَجْهِ العَدُوِّ ، ويَضْرِبُ لَهُ _ولِكُلِّ صَاحِبِ حَقٍّ_ دَرْسًا فِي الصَّبْرِ والجَلَدِ وعَدَمِ الخُضُوعِ أَوِ الرُّكُوعِ ، فَيَقُولُ فِي قَصِيدةِ (السَّيْفُ عَلَى العُنُق) :

أَخِي ، لَوْ جَرَّنِي الجَلادُ قُدّامَكَ لِلْمَذْبَح
لكَيْ تَرْكَعَ ، تَرْجُوهُ بِأَنْ يَعْفُوَ وَأَنْ يَصْفَح
أَخِي ، ارْفَعْ رَأْسَكَ الشَّامَخَ كَيْ تَشْهَدَنِي أُذْبَح
وكَيْ تَشْهَدَ جِلادِي ، وَالسَّيْفَ الذِي يَرْشَح
أَخِي ، مَنْ يَفْضَحُ الجَلادَ ، غَيْرُ دِمَائِنَا تَفْضَح (28)

نَجَحَ الشَّاعِرُ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ فِكْرَةِ الصُّمُودِ والشُّمُوخِ بشَكْلٍ وَاضِحٍ ، مُعْتَمِداً عَلَى التَّقْرِيرِيَّةِ فِي أَبْسَطِ صُوَرِهَا ، ودونَ غُمُوضٍ ، إِنَّهُ تَعْبِيرٌ مُبَاشَرٌ بِمَا يُنَاسِبُ مِثْلَ هَذَا النَّوْعَ مِنَ المَوْضُوعَات .

وَيُعْلِنُ (رَفِيق أَحْمَد عَلِيّ) صمُودَهُ فِي أَرْضِهِ وَتَجَذُّرَهُ فِيها ، رَغْمَ كُلِّ المُمَارَسَاتِ الوَحْشِيَّةِ التِي يُمَارِسُهَا العَدُوُّ ضِدَّ أَبْنَاءِ شَعْبِهِ ، فَرُوحُهُ صُلْبَةٌ لا تَتَصَدَّعُ ، ثَابِتَةٌ لا تَتَزَعْزَعُ ، لا تَحِيدُ عَنْ المُطَالَبَةِ بِحُقُوقِهَا العَادِلَة ؛ حَيْثُ يَقُولُ فِي قَصِيدةٍ عُنْوَانُها (صَوْتُ الصُّمُود) :

أَنَا صَامِدٌ فِي هَذِهِ الأَرْضِ التِي
دَمُنَا عَلَيْهَا كُلَّ حِينٍ يُطْبَع ..

مُتَغَلْغِلٌ بِجُذُورِ تَارِيخٍ مَضَى
مُتَفَرِّعٌ .. بِغُصُونِ آتٍ يُصْنَع
بَاقٍ عَلَى عَهْدِ الوَفَاءِ ، مُرَابِط
وَضَعُوا بِجِسْمِي القَيْدَ ، أَوْ هُمْ قَطَعُوا
أَوْ أَقْفَلُوا بَيْتِي وَسَدُّوا شَارِعِي
أَوْ بَيَّتُوا لِمَذَلَّتِي أَوْ شَرَّعُوا
تَتَصَدّعُ الأَطْوَادُ
والرُّوحُ التِي فِي أَضْلُعِي ...
كَالصُّلْبِ لا تَتَصَدَّعُ .. (29)

نَلْحَظُ فِي المَقْطَعِ السَّابِقِ أَنَّهُ غَلَبَ عَلَى الخِطَابِ ضَمِيرُ المُتَكَلِّم (أَنَا) ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّهُ حَدِيثٌ خَاصٌّ وصَرِيحٌ ؛ حَيْثُ تُمَثِّلُ الأَسْطُرُ حِوَاراً بَيْنَ (أَنَا) و(هُمْ) الذِي يُمَثِّلُه الحُضُورُ الخَارِجِيّ لِدَالٍّ غَائِبٍ ذِهْنِيّاً ، فَعَمَدَ الشَّاعِرُ إِلَى عَمَلِيّةِ إِقْنَاعٍ لِلمُخَاطَبِ الغَائِبِ ، يَعْتَمِدُ عَلَى عَمَلِيَّةِ خَرْقٍ لِلتَّوَازُنِ بَيْنَ الأَشْيَاءِ ؛ إِذْ لا تَتَصدَّعُ رُوحُهُ ، وَإِنْ تَصدَّعَتِ الجِبَالُ ، وَجَسَدُهُ مُتَجَذِّرٌ فِي الأَرْضِ مُتَغَلْغِلٌ كَالشَّجَرَةِ ، وَإِنْ اقْتُلِعَتِ الأَشْجَارُ ، وعَلَى مُسْتَوَى الدِّلالَةِ المُعْجَمِيَّةِ فَإِنَّه يَغْلُبُ عَلَى المَقْطَعِ السَّابِقِ اسْتِخْدَامُ المُفْرَدَاتِ الدَّالَّةُ عَلَى الصُّمُودِ والثَّبَاتِ ، مِثْلَ : (صَامِدٌ ، مُتَغَلْغِلٌ ، مُتَفَرِّعٌ ، بَاقٍ ، كَالصُّلْب ، لا تَتَصَدَّعُ) ، وكُلُّها أَلْفَاظٌ جَاءَت مُتَسَاوِقَةً مَعَ الخَطِّ الدِّلالِيّ العَامِّ لِلصِّيَاغَةِ .

وَفِي خِضَمِّ المُعَانَاةِ التِي صَارَت سِمَةً تَسِمُ حَيَاةَ اللاجِئِينَ ، صَارَ المُخَيَّمُ بِالنِّسْبَةِ لِلاجِئِينَ عَقِيدةً تَتَأَصَّلُ فِي قُلُوبِهِم ، وَمَبْدَأً يَسْرِي فِي دِمَائِهِم ، فَيُوْقِدُ فِي نُفُوسِهِم رُوحَ الإِصْرَارِ والأَمَلِ المُنْبَثِقُ مِنَ الآلامِ والأَوْجَاعِ . يَقُولُ (عُمَر شَبَانة) فِي قَصِيدة (قِرَاءَاتٌ فِي عَيْنَيْ خُلُود) :
المُخَيَّمُ يَكْبَرُ فِي دَمِنَا
يَحْتَوِينَا ،
وَيَمْشِي بِنَا لِلْبِلادِ التِي أَطْلَعَت هَمَّنَا .
أَطْلِقِي لِلْبُيُوتِ أَعِنَّتَها
يَبْدَأُ البَرْقُ مِنْ وَجَعِ الفُقَرَاء
اتْرُكِي لِلسَّنَابِلِ أَوْرِدَةً
يَبْدَأُ الطَّلْقُ مِنْ بُرْعُمٍ يَتَفَتَّحُ
فَوْقَ بُيُوتِ الصَّفِيحِ (30)

وحِينَ يَكُونُ الجُرْحُ عَلَى هَذِهِ الدَّرَجَةِ مِنَ الفَدَاحَةِ ، فَإِنَّ الأَلَمَ _قَبْلَ التَّعَالِي عَلَى النَّكْبَةِ والبَحْثِ عَنْ سُبُلِ التَّغَلُّب عَلَى عَوَامِلِها_ سَيَأْخُذُ مَدَاهُ فِي الحَنِينِ إِلَى الوَطَنِ السَّلِيبِ ، الذِي لا تَزَالُ صُورَتُهُ مَاثِلَةً فِي رُوحِ كُلِّ لاجِئٍ مَهْمَا طَالَ الزَّمَانُ . يَقُولُ (هَارُون هَاشِم رَشِيد) فِي قَصِيدة (سنعود) :

سَنَعُودُ يَا أُخْتَاهُ لِلْوَطَــنِ رَغْــمَ الشَّقَاءِ وقَسْوَةِ الزَّمَنِ
رَغْمَ اللَّيَالِي العَابِثَاتِ بِنَا وَالجــُوعِ وَالتَّشْرِيدِ وَالمِحَنِ
سَنَشُقُّ أَسْفَارَ الظَّلامِ غَدَاً سَنَشُــقُّهَا وَنَعُــودُ لِلْمــُدُنِ
سَنَسِيرُ بِالفَجْرِ الجَمِيلِ قُوَىً جَبَّارَةً تَقْضِي عَلَى الوَهَــنِ
سَنَعُودُ يَا لَيْلايَ فَانْتَظِرِي فِي الخَيْمَةِ السَّوْدَاءِ فِي الحُفَرِ
حَتَّى يَلُوحَ النُّورُ مُنْبَثِقَاً وَأَنَــا وَأَنتِ نَسِيرُ لِلظَّفَرِ (31)

وَضَحَت فِي النُّصُوصِ السَّابِقَةِ وِحْدَةُ المَوْضُوعِ ، وَظَلَّتْ فِكْرَةُ تَحَدِّي العَدُوِّ وَالصُّمُودِ فِي وَجْهِهِ هِيَ وَحْــدَهَا التِي تَعْمُرُ النَّصَّ ، حَيْثُ تَسَلْسَلَتْ فِي فُرُوعٍ وعَنَاصِرَ كَانَت قَدْ تَفَرَّعَت ، إلا أَنَّهَا تَرَابَطَت فُرُوعُهــا وَعَنَاصِــرُهَا مُبْرِزَةً نَظْرَةَ الشُّعَرَاءِ فِي يَقَظَةِ الإِحْسَاسِ بِالقُوَّةِ وَالعِزَّةِ ، رَاسِمَةً طَرِيقَ الصُّمُودِ وَالتَّصَدِّي لِشَعْبِهِم فِي وَجْهِ إِرْهَابِ العَدُوّ . وَهَكَذَا جَاءَتْ مُعْظَمُ القَصَائِدِ _وَخَاصَّةً فِي تِلْكَ القَصَائِدِ التِي تَتَأَلَّفُ الرُّؤْيَةُ الشِّعْرِيَّةُ فِيهَا مِنْ مَجْمُوعَةٍ مِــنَ الأَحَاسِيسِ والخَوَاطِرِ والهَوَاجِسِ_ صُوَرَاً حَيَّةً تَتَآزَرُ أَجْزَاؤُهَا وَتَتَمَاسَكُ لِإِبْرَازِ أَفْكَارِ الشُّــعَرَاءِ وَعَــوَاطِفِهِمْ (32) نَحْوَ قَضِيَّةِ شَعْبِهِمْ ، رَاسِمَةً طَرِيقَ الحُرِّيَّةِ لِهَذَا الشَّعْب .

وَلَقَدْ نَادَى النُّقَّادُ المُحْدَثُونَ بِضَرُورَةِ تَصْوِيرِ المَعَانِي وَالعَوَاطِفِ وَالانْفِعَالاتِ النَّفْسِيَّةِ تَصْــوِيرًا فَنِّيًّــا تَــتَلاحَمُ أَجْزَاؤُهُ ، بِحَيْثُ تَصِلُ فِي النِّهَايَةِ إِلَى بُنْيَةٍ حَيَّةٍ لِلْعَمَلِ الأَدَبِيّ تُشَابِهُ تَمَامًا بُنْيَةَ الكَائِنِ الحَيِّ فِي انْسِجَامِهَا وَتَشْكِيلِهَا ، وَجَهَرُوا بِهَذَا المَطْلَبِ ، فَأَطْلَقُوا عَلَيْهِ الوِحْدَةَ العُضْوِيَّةَ (33) .

المِحْوَرُ الرَّابِع : المُخَيَّمُ رَمْزُ المُوَاجَهَةِ والتَّصَدِّي :

إِنَّ حَالاتُ العَذَابِ والأَلَمِ التِي حَلّت بِاللاجِئِينَ عَلَى أَيْدِي الغُزَاةِ ، كَانَت دَافِعًا قَوِيًّا لِإِعْلانِ الصُّمُودِ فِــي وَجْــهِ الظُّلْمِ وَمُمَارَسَاتِ القَمْعِ ، وَتَحَدِّي كُلِّ أَسَالِيبِ العَدُوِّ التِي تَسْعَى إِلَى قَهْرِ إِرادَةِ الفِلَسْطِينِيينَ ، وَهُنَــا يُعْلِــنُ (سَــمِيحُ القَاسِمِ) تَحَدِّي سُكَّانِ المُخَيَّمَاتِ لِلْعَدُوّ بِالحِجَارَةِ ، قَائِلاً :

نَقُولُ لَكُمْ بِصَرِيحِ العِبَارَةِ
قَبِلْنَا التَّحدِّي
قَبِلْنَا التَّحَدِّي
إِذَا لَمْ تَرُقْكُمْ عُصُورُ الحَضَارَةِ
فَإِنّا نَعُودُ لِعَصْرِ الحِجَارَةِ
قَبِلْنَا التَّحَدِّي ! (34)

يُصَرِّحُ الشَّاعِرُ فِي الأَسْطُرِ السَّابِقَةِ بِقبول تَحَدِّي العَدُوَّ فِي خِطَابٍ حَادٍّ يَسْتَجْلِي المَشَاعِرَ وَالأَفْكَــارَ الذَّاتِيَّــةَ ، تُجَسِّدُهُ جُمْلَةُ (قَبِلْنَا التَّحَدِّي) ، ونَجَحَ فِي تَوْظِيفِ الجُمْلَةِ الفِعْلِيَّةِ المُكَرَّرَةِ المُصَدَّرَةِ بِالفِعْلِ المَاضِي (قَبِلْنَا) المُسْنَدِ إِلَى ضَمِيرِ الفَاعِلِينَ ، فَأَتَاحَ لَهُ ذَلِكَ فُرْصَةَ وَصْفِ الأَحْدَاثِ فِي تَزَامُنِهَا وَتَعَاقُبِهَا ، كَمَا أَتَاحَ لَهُ فُرْصَــةَ تَأْكِيــدِ الــرُّوحِ الجَمَاعِيَّةِ الشَّائِعَةِ فِي جَوِّ النَّصِّ ؛ فَالشَّاعِرُ _إِذَنْ_ يَسْعَى إِلَى تَحْقِيقِ القُدْرَةِ عَلَى البَقَاءِ وَالاسْتِمْرَارِ وَالصُّمُودِ ، مِنْ

نَاحِيَة ، وَالدِّفَاعِ عَنِ أَرْضِهِ وَمُنَازَلَةِ أَعْدَائِهِ ، مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى ، فَالأَوَّلُ يَحْفَظُ لَهُ البَقَــاءَ وَالاسْــتِمْرَارِ ، وَالثَّــانِي يَضْمَنُ لَهُ الدِّفَاعَ المُسْتَمِرَّ عَنْ وُجُودِهِ .

وَعَلَى أَرْضِ المُخَيَّمِ وَبِسَوَاعِدِ أَبْنَائِهِ انْطَلَقَتِ المُقَاوَمَةُ ، لِذَا فَقَدْ تَحَوَّلَتِ المُخَيَّمَاتِ إِلَــى جَبْهَــاتٍ عَسْــكَرِيَّةٍ ، وَسَاحَاتٍ لِلْقِتَالِ مُطَالِبَةً بِالحُرِيَّةِ ، وَرَفْعِ الحَيْفِ وَالظُّلْمِ عَنِ الإِنْسَانِ الفِلَسْطِينِيِّ الذِي طُرِدَ مِنْ أَرْضِهِ وَسُلِبَت حُقُوقُه . تَقُولُ (وِدَادُ البَرْغُوثِيّ) :

نَهَضَ المُخَيَّمُ صَاحَ فِي وَجْهِ الغُزَاةِ ..
أَنَا المُخَيَّمُ وَالفَضَاءُ وَأَنَا المُدَانُ المُحْكَمَة ..
وَأَنَا القَضِيَّةُ .. يَنْهَضُ الأَطْفَالُ فِيهَا
ثُمَّ يَسْتَلُّونَ مِنْ دَمِهِم سُيُوفاً لِلْقِتَالِ
يُلَوِّحُونَ بِوَجْهِ قَاضِيهِم فَيَا هَذَا
القَضَا اشْهَدْ
الآنَ يَنْهَضُ مِنْ رُفَاتِ القَبْرِ
مَحْمُودُ وَتَيْسِيرُ وَأَسْعَد (35)

وَلَمْ يَكْتَفِ الشُّعَرَاءُ بِالوُقُوفِ عَلَى أَطْرَافِ دَائِرَةِ التَّحَدِّي وَالصُّمُودِ ، بَلْ وَيَرْفَعُونَ صَوْتَهُمْ بِإِعْلانِ صُــمُودِهِم الأُسْطُورِيّ ، وَإِصْرَارِهِم عَلَى مُوَاصَلَةِ التَّصَدِّي لِلطُّغَاةِ ، وَتَحْقِيقِ النَّصْرِ وَالعَوْدَةِ ، فَلا عَجَبَ _إِذَنْ_ أَنْ يَكْفُرَ هَذَا الشَّعْبُ بِالظُّلْمِ وَالتَّشْرِيدِ ، وَبِمُؤَامَرَاتِ الاسْتِسْلامِ التِي تَتَجَاهَلُ حَقَّهُ فِي العَوْدَةِ وَالحَيَاةِ الكَرِيمَةِ . يَقُولُ هَارُونُ هَاشِم رَشِيد :

فَنَحْنُ بِالسَّلامِ كَافِرُون
لأَنَّنَا مُضَيَّعُونَ تَائِهُون
مَنْ نَحْنُ دُونَمَا بِلادِنَا ؟
مَنْ نَحْنُ ؟ مَنْ نَكُون
ونَحْنُ فِي القِفَارِ ضَارِبُون
مَنْ نَحْنُ ؟ مَنْ نَكُون (36)

وَيُقَدِّمُ مَحْمُود دَرْوِيش فِي قَصِيدَةِ (بِطَاقَةُ هُوِيَّة) صُورَةً وَاضِحَةً وَصَادِقَةً لِشَخْصِيَّةِ شَعْبِهِ المَظْلُوم ؛ فَشَعْبُهُ لا يَكْرَهُ النَّاسَ ، وَلا يَظْلِمُ أَحَدًا ، وَالعُنْفُ لَيْسَ سِمَةً تَسِمُ شَخْصِيَّتَهُ ، بَلْ وَسِيلَةٌ يَلْجَأُ إِلَيْهَا لِيَنْتَزِعَ حَقَّــهُ فِــي الحَيَــاة ، فَيَقُول :

سَجِّلْ بِرَأْسِ الصَّفْحَةِ الأُولَى
أَنَا لا أَكْرَهُ النَّاسَ
وَلا أَسْطُو عَلَى أَحَدٍ

وَلَكِنِّي .. إِذَا مَا جُعْتُ آكُلُ لَحْمَ مُغْتَصِبِي
حَذَارِ حَذَارِ مِنْ جُوْعِي وَمِنْ غَضَبِي (37)

يُؤَكِّدُ الشَّاعِرُ فِي المَقطَعِ السَّابِقِ إِنْسَانِيّةَ الإِنْسَانِ الفِلَسْطِينِيِّ ، وَلَيْسَ كَمَا يَدّعِي العَدُوّ ، فَهُوَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ لا يَكْرَهُ أَحَداً مِنَ البَشَرِ ، وَلا يَعْتَدِي عَلَى حُقُوقِ الآخَرِينَ ، لَكِنْ إِذَا مَا حَاوَلَ العَدُوُّ أَنْ يَقْضِيَ عَلَى وُجُودِهِ وَمَصِيرِهِ ؛ فَإِنَّهُ سَيَنْتَفِضُ مَارِداً وَيَهُبُّ مُكَافِحًا مِنْ أَجْلِ حَقِّهِ فِي الحَيَاةِ وَالوُجُودِ .

وَيُمَثِّلُ المُخَيَّمُ بِالنِّسْبَةِ لِلفِلَسْطِينِيِينَ قِيمَةً سِيَاسِيَّةً وطَنِيَّةً ، فَهُوَ المَكَانُ الذِي شَهِدَ انْطِلاقَ شَرَارَةِ انْتِفَاضَةَ الحِجَارَةِ ، وَيُؤَكِّدُ (عَبْدُ النَّاصِرِ صَالِح) فِي قَصِيدَةِ (فِي البَدْءِ كَانَ الحَجَرُ) انْطِلاقَ الانْتِفَاضَةِ فِي المُخَيَّم ، فَيَقُول :

هِيَ فِكْرَةٌ قَبْلَ الدُّخُولِ إِلَى الحَجَر
هِيَ خُطْوَةٌ تَأْتِي وَيَتْبَعُهَا الحَجَر
هَلْ كَانَ فِي البَدْءِ الحَجَر ؟
هَلْ كَانَ فِي البَدْءِ المُخَيَّم ؟
_ كَانَ فِي البَدْءِ الصَّفِيح
يُسَجِّلُ التَّارِيخَ فِي أَحْلَى صُوَر:
... وَطَنٌ تَجَسَّدَ فِي مُخَيَّم (38)

وَلَقَدْ شَاعَتْ لَفْظَةُ الحَجَرِ فِي شِعْرِ الانْتِفَاضَة ، كَرَمْزٍ صِرَاعِيٍّ وَأَدَاةٍ قِتَالِيَّةٍ ، اسْتَخْدَمَهَا المُنْتَفِضُونَ فِي المُخَيَّمَاتِ ؛ حَيْثُ تَحَوَّلَت هَذِهِ الأَدَاةُ الصِّرَاعِيَّةُ إِلَى رَمْزٍ أُسْطُورِيٍّ لِلْكِفَاحِ الذِي يَخُوضُهُ الشَّعْبُ الفِلَسْطِينِيّ المُنَاضِلُ ضِدَّ أَعْدَائِهِ المُغْتَصِبِينَ ؛ فَالحَجَرُ هُوَ السِّلاحُ الفَذُّ الذِي يَمْلِكُهُ أَطْفَالُ الانْتِفَاضَةِ وَيُشْهِرُونَهُ فِي وَجْهِ الغُزَاةِ ؛ وَهُوَ الذِي قَلَبَ المَوَازِينَ ، وَبَعْثَرَ الحِسَابَاتِ ، وَهَزّ الفِكَر .

وَفِي قَصِيدَةِ (حَجَرٌ وَيَكْتَمِلُ القَمَرُ) ، يُعَبِّرُ (عَدْنَانُ ضَمِيري) عَنْ أَهَمِّيَّةِ الحَجَرِ كَسِلاحٍ فِي أَيْدِي الأَطْفَالِ ، فَيَقُول :

حَجَرٌ تَلَفَّعَ بِالأَصَابِعِ غَضَّة
حَجَرٌ تَمَنْطَقَ بِالرُّجُولَةِ وَانْتَصَر
حَجَرٌ وَيَكْتَمِلُ القَمَر
حَجَرٌ وَيَنْتَصِرُ الفَرَاشُ عَلَى الجَرَاد
حَجَرٌ يُلَمْلِمُ مَا تَبَقَّى مِنْ قَبَائِلِنَا
حَجَرٌ وَيَنْتَفِضُ الغَضَب (39)

أَمَّا (عَبْدُ النَّاصِرِ صَالِح) فَيَذْهَبُ إِلَى أَبْعَدَ مِنْ ذَلِك ، حَيْثُ يَجْعَلُ الحِجَارَةَ قَنَابِلَ فِي أَيْدِي الأَطْفَالِ ، بَلْ نَجِدُهُ يُشَخِّصُ الحَجَرَ فِي صُورَةِ مُقَاتِلٍ يُقَاتِلُ الأَعْدَاءَ ، فَيَقُول :

وَالحَجَرُ بِأَيْدِي الأَطْفَالِ قَنَابِل
والشَّجَرُ يُقَاتِل
والحَجَرُ يُقَاتِل (40)

لَقَدْ جَعَلَ الشُّعَرَاءُ مِنَ الحَجَرِ رَمْزًا لِلمُقَاوَمَةِ وَالكَرَامَةِ مِنْ نَاحِيَة ، وَمَصْدَرًا لِلْحَيَاةِ وَالحَرَكَةِ فِي مَشْهَدِ الانْتِفَاضَةِ فِي المُخَيَّمِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى ، إِنَّهُ _بِحَقٍّ_ سِلاحُ الانْتِفَاضَةِ الأَوّلُ ، الذِي كَشَفَ الحَقَائِقَ ، وأَسْقَطَ الأَقْنِعَةَ عَنِ الوُجُوه .

وَهَكَذَا تَحَوَّلَ المُخَيّمُ فِي الانْتِفَاضَةِ الأُولَى مِنْ مُجَرَّدِ خَرَائِبَ يَعْلُوهَا الصَّفِيحُ إِلَى كَائِنٍ فَاعِلٍ يُرِيدُ أَنْ يُغَيِّرُ وَجْهَ التَّارِيخِ ؛ لِذَلِكَ حَمَلَ هُمُومَ الوَطَنِ لِيَقْذِفَهَا نَاراً فِي وَجْهِ عَدُوِّهِ . فَلَمْ يَعُدِ اللاجِئُونَ يَخْشَوْنَ شَيئًا ، ولا يَهَابُونَ أَحَدَاً ؛ لِذَا صَارَ المَوْتُ سِلاحًا لا عِقَابًا ، يَقُولُ (سَمِيحُ القَاسِم) :

سُتُّونَ عَاماً قَدْ مَضَت
تَقَدَّمُوا تَقَدَّمُوا
كُلُّ سَمَاءٍ فَوْقَكُم جَهَنَّمُ
وَكُلُّ أَرْضٍ تَحْتَكُم جَهَنَّمُ
تَقَدَّمُوا
يَمُوتُ مِنَّا الطِّفْلُ وَالشَّيْخُ
وَلا يَسْتَسْلِمُ
وَتَسْقُطُ الأُمُّ عَلَى أَبْنَائِهَا القَتْلَى
وَلا تَسْتَسْلِمُ (41)

وَقَدْ سَجَّلَ (سَمِيحُ القَاسِم) انْطِبَاعَاتِهِ الإِيجَابِيَّة عَنْ المُخَيَّمِ عِنْدَمَا جَعَلَهُ بِمَن فِيهِ مِنْ جَرْحَى وَثَكْلَى وَيَتَامَى يَتَقَدَّمُ الجَمِيعَ ، وَيَقُودُ الأَحْدَاثَ تَحْتَ شِعَارِ (مَوْتٌ وَلا رُكُوعٌ) ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ شِدَّةِ الحِصَارِ الذِي قُصِدَ مِنْهُ أَنْ تَتَحَوَّلَ المُخَيَّمَاتُ إِلَى سُجُونٍ جَمَاعِيَّةٍ ، كَمَا جَعَلَ المُخَيَّمَ المَكَانَ الأَنْسَبَ لِنَشَاطِ المُلَثَّمِ ، لأَنَّ وَاقِعَهُ المُؤْلِمَ يَدْفَعُهُ إِلَى مَزِيدٍ مِنَ التَّحَدِّي ، فَيَقُول :

تَقَدَّمُوا
هَا هُوَ ذَا تَقَدَّمَ المُخَيَّمُ
تَقَدَّمَ الجَرِيحُ وَالذَّبِيحُ وَالثَّاكِلُ
وَالمُيَتَّمُ
أَبْيَضٌ فِي أَزِقَّةِ المُخَيّم
أَسْوَدٌ فِي كُوفِيَّةِ المُلَثّم (42)

رُسِمَت فِي المَقاطِعِ السَّابقَةِ صُورَةٌ لِلْمُخَيَّمِ الصَّامِدِ الثَّائِرِ فِي وَجْهِ الغُزَاةِ ، فَقَدْ نَهَضَ المُخَيَّمِ مِنْ جِرَاحِهِ وَآلامِهِ يَتَصَدَّى لِعَدُوِّهِ بِكُلِّ أَشْكَالِ القُوَّةِ التِي يَعْرِفُهَا ، فَعَلَى عَاتِقِ أَبْنَائِهِ تَقَعُ مَسْؤُولِيَّةِ الكِفَاحِ وَالنِّضَالِ ، فَمِنْهُ المُنْتَفِضُونَ وَالمُعْتَقَلُونَ وَالشُّهَدَاءُ . وَقَد استَدْعَى الحَدِيثُ عَنْ ثَوْرَةِ المُخَيَّمِ الإِشَارَةَ إِلَى مُفْرَدَاتِ الانْتِفَاضَةِ ، وَهِيَ الحَجَرُ ، وَالمُلْثَّمُ ، وَالكُوفِيَّة ، وَأَبْيَضُ أَسْوَدُ ، وَالتِي أَصْبَحَتْ جُزْءاً مِنْ ثَقَافَةِ الإِنْسَانِ الفِلَسْطِينِيّ .

وَلْنَقِفْ مَعَ (أَحْمَد أَبُو غُوش) فِي هَذَا المَقْطَعِ مِنْ قَصِيدَتِهِ (قُل لِلطُّغَاة) ، حَيْثُ يَقُول :

قُل لِلطُّغَاةِ القَاتِلِينَ
لَنْ تَعِيشُوا فِي بِلادِي هَانِئِين
قُل لِلطُّغَاةِ وَبِاحْتِقَار
عَيْنَايَ مَا سَمِلَت
وَإِبْصَارِي تَضَاعَفَ أَلْفَ مَرَّة
بِتُّ أَعْرِفُ قَاتِلِي
وَالدَّرْبُ نَحْوَ بِلادِنَا حُرّه
وَبِتُّ أُشَاهِدُ النَّصْرَ القَرِيب (43)

فَفِي الحِوَارِ الدَّاخِلِيّ السَّابِق يَبْرُزُ صَوتَانِ لِشَخْصٍ وَاحِدٍ ، أَحَدُهُمَا صَوْتُهُ الخَارِجِيُّ العَامّ ، أَي صَوْتُهُ الذِي يَتَوَجَّهُ بِهِ إِلَى الآخَرِينَ ، وَالآخِرُ صَوْتُهُ الدَّاخِلِيُّ الخَاصُّ الذِي لا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ غَيْرُهُ ، وَلَكِنَّهُ يَبْرُزُ عَلَى السَّطْحِ مِنْ آنٍ إِلَى آخَرَ ، وَهَذَا الصَّوْتُ الدَّاخِلِيُّ إِذْ يُبْرِزُ لَنَا كُلَّ الهَوَاجِسِ وَالخَوَاطِرِ وَالأَفْكَارِ المُقَابِلَةِ لِمَا يَدُورُ فِي ظَاهِرِ الشُّعُورِ أَوِ التَّفْكِيرِ ، إِنَّمَا يُضِيفُ بُعْداً جَدِيدًا ، مِنْ جِهَة ، وَيُعِينُ عَلَى الحَرَكَةِ الذِّهْنِيَّةِ ، مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى .

وَمِنْ المُلاحَظِ أَنَّ الشُّعَرَاءَ اسْتَطَاعُوا أَنْ يُعَبِّرُوا عَنْ أَفْكَارِهِم وَأَهْدَافِهِم دُونَ مُوَارَبَةٍ أَوْ حَاجَةٍ إِلَى التَّعْمِيَةِ ، أَوْ اللُّجُوءِ إِلَى الرَّمْزِيَّة المُغَلَّفَةِ بِالضَّبَابِ وَالغُمُوضِ الذِي وَسَمَ كَثِيراً مِنْ قَصَائِدِ الشِّعْرِ المُعَاصِرِ عَامَّة ، وَشِعْرِ الحَدَاثَةِ خَاصَّة (44) ، وَرُبَّمَا يَعُودُ ذَلِكَ إِلَى وُضُوحِ الأَهْدَافِ وَاسْتِلْهَامِ الوَاقِعِ ، فَعِنْدَمَا يَكْتُبُ الوَاحِدُ مِنْهُم عَنْ الطِّفْلِ أَوِ الحَجَرِ أَوْ الحِصَارِ ، فَهُوَ لا يَكْتُبُ عَنْ شَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَسْتَحْضِرَ صُورَتَهُ مِنْ فَرَاغٍ ، وَإِنَّمَا يَكْتُبُ عَنْ وَاقِعٍ يَعِيشُهُ .

هَذَا الوُضُوحُ ، وَهَذِهِ المُبَاشَرَةُ سِمَةً مَيَّزَتِ كَثِيرًا مِنْ القَصَائِدِ التِي اهْتَمَّت بِتَصْوِيرِ مَشَاهِدِ النِّضَالِ وَالثَّوْرَةِ عَلَى امْتِدَادِ الوَطَنِ الفِلَسْطِينِيِّ ، وَخَاصَّةً فِي المُخَيَّمَاتِ .

وَإِذَا كَانَ الشَّارِعُ هُوَ أَبْرَزُ مَكَانٍ شَهِدَ مُعَانَاةَ اللاجِئِينَ فِي المُخَيَّمَاتِ ، فَهُوَ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ المَكَانُ الذِي عَبَّرَ فِيهِ الفَلَسْطِينِيُّونَ عَن صُمُودِهِم وَتَحَدِّيهِم لِلمُحْتَلّ ، وَخَيْرُ مَنْ عَبَّرَ عَنْ ذَلِك (سَمِيحُ القَاسِم) فِي قَصِيدَتِهِ الطَّوِيلَةِ (البَيَانُ قَبْلَ الأَخِير) ، التِي يَقُولُ فِيهَا :

جِئْتُمْ

إِذَنْ ، فَلْيَخْرُجِ القَتْلَى إِلَى الشَّوَارِعْ
وَلْيَخْرُجِ الآبَاءُ وَالأَبْنَاءُ .. لِلشَّوَارِعْ
وَلْتَخْرُجِ البُيُوتُ وَالوَرْشَاتُ وَالمَزَارِعْ
وَلْتَخْرُجِ المِحْنَةُ وَاللَّعْنَةُ .. لِلشَّوَارِعْ
وَلْتَخْرُجِ النَّكْبَةُ وَالنَّكْسَةُ لِلشَّوَارِعْ
وَلْيَخْرُجِ الدَّجَاجُ وَالسِّيَاجُ لِلشَّوَارِعْ
الكُلُّ _ لِلسَّاحَاتِ وَالشَّوَارِعْ
وَالكُلُّ _ فِي السَّاحَاتِ وَالشَّوَارِعْ
وَلْتُدْرِكِ المَصَارِعُ المَصَارِعْ (45)

فَقَدْ تَكَرَّرَت كَلِمَةُ (الشَّوَارِع) فِي المَقْطَعِ السَّابِقِ ، لِتُصَوِّرَ حَالَةَ خُرُوجِ الشَّعْبِ بِرِجَالِهِ وَنِسَائِهِ ، وَكِبَارِهِ وَصِغَارِه ، وَأَحْيَائِهِ وَأَمْوَاتِهِ ، وَخُرُوجِ الوَطَنِ بِكُلِّ عَنَاصِرِهِ المَادِيّةِ وَالمَعْنَوِيَّةِ ، وَبِكُلِّ مَا تَحْمِلُهُ كَلِمَةُ (وَطَن) مِنْ ذِكْرَيَاتِ الأَلَمِ وَالمِحْنَةِ وَالنَّكْسَةِ ، مِنْ أَجْلِ الوُقُوفِ سَدًّا مَنِيعاً مِنَ الأَجْسَادِ فِي وَجْهِ العَدُوّ وَمُمَارَسَاتِهِ الوَحْشِيَّةِ ؛ لِيُسَجِّلُوا مَلْحَمَةَ البُطُولَةِ وَالفِدَاءِ وَالتَّضْحِيَةِ .

هَكَذَا كَانَ الشَّارِعُ مَيْدَانًا لِلصِّرَاعِ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ ، مَيْدَاناً تَدُورُ فِيهِ المُوَاجَهَاتُ بَيْنَ الغُزَاةِ الَّذِينَ انْدَفَعُوا مُسَلَّحِينَ بِشَهْوَةِ القَتْلِ وَكُلِّ أَجْهِزَةِ القَمْعِ ، وَبَيْنَ اللاجِئِينَ _بِكُلِّ فِئَاتِهِم_ الَّذِينَ اخْتَارُوا المَوْتَ بَدِيلاً عَنِ الاسْتِسْلامِ ، وَالمُشَارَكَةَ الجَمَاعِيّةَ بَدِيلاً عَنْ المُقَاوَمَةِ الفَرْدِيّةِ ، وَهَذَا يَتَّفِقُ وَطَبِيعَةَ الانْتِفَاضَةِ فِي كَوْنِها انْتِفَاضَةً شَعْبِيّة عَارِمَة .

لَقَد نَجَحَ الشَّاعِرُ الفِلَسْطِينِيّ فِي إِبْرَازِ الهُوِيَّةِ النِّضَالِيَّةِ الصَّادِقَةِ لِلْمُخَيَّمِ ، وَأَصْبَحَ الحُضُورُ الفِلَسْطِينِيُّ فِي العَالَمِ رَمْزاً لِنِضَالِ المُعَذَّبِينَ فِي الأَرْضِ . إِنَّهَا مَسِيرَةٌ شَدِيدَةُ التَّرْكِيبِ وَالتَّعْقِيدِ ، جَمَعَتْ صَوْتَ الفَرْدِ إِلَى صَوْتِ الجَمَاعَةِ ، وَالمَرْأَةَ إِلَى الرَّجُلِ . إِنَّهُ _بِامْتِيَازٍ_ صَوْتُ الحَقِّ الذِي يَعْلُو فَوْقَ كُلِّ الأَصْوَاتِ ، مَهْمَا كَانَتِ العَقَبَاتُ .

<u>هوامش البحث</u> :

(1) نظمي بركة ، الاتجاه الرومانسي في الشعر الفلسطينيّ ، الفجر للطباعة والنشر والتوزيع ، 1995 ، ص217.
(2) كامل السَّوافيريّ ، الأدب العربيّ المعاصر في فلسطين ، دار المعارف بمصر ، ص241.
(3) المصدر السابق ، ص 218_219.
(4) المصدر نفسه ، ص 234.
(5) معين بسيسو ، قصائد مختارة ، وزارة الثقافة الفلسطينية ، سلسلة كتاب القراءة للجميع (2) ،2001 ، ص17.
(6) هارون هاشم رشيد ، ديوان (مع الغرباء) ، ط1 ، القاهرة ، 1954، ص53.
(7) يوسف الخطيب ، ديوان عائدون ، منشورات دار الآداب ، بيروت ، 1959، ص58_59.

(8) مريد البرغوثي ، قصائد مختارة ، وزارة الثقافة الفلسطينية ، سلسلة كتاب القراءة للجميع (3) ،2001 ، ص32.

(9) الأدَبُ العَرَبِيّ المُعَاصِر فِي فِلَسْطِين ، ص234.

(10) ديوان (للفقراء فقط) ، اتّحاد الكتاب الفلسطينيين ، ط1 ، 1991 ، ص88_89.

(11) قيامة الحجر ، مجلة الجديد ، العدد9 ، حيفا ، 1989 ، ص56_58 .

(12) عادل أبو عمشة ، شعر الانتفاضة ، اتّحاد الكتّاب الفلسطينيين ، القدس ، ط1_1991، ص154.

(13) فدوى طوقان ، الأعمال الكاملة ، دار العودة ، بيروت ،2002، ص76.

(14) الأدبُ العَرَبِيّ المُعَاصِرُ في فِلَسْطِينَ ، ص184.

(15) ديوان (للفقراء فقط) ، ص 88_89.

(16) مجلّة الجديد ، العدد 5 ، أيار– 1988 ، ص56.

(17) يوسف حامد ، يحيا دمها المرّ الأحمر ، ديوان (أكمل غناءك) ، ص105_109.

(18) رسالة إلى غزاة لا يقرؤون ، الأعمال الكاملة ، المجلّد الثالث ، دار الجيل ، بيروت ، 1992 ، 3/405_411.

(19) عبد الرحمن بدوي ، الموت والعبقريّة ، مكتبة النهضة المصريّة ، 1962 ، ص109.

(20) عبد اللطيف عقل ، من قصيدة : مقاطع الصحو والنوم ، موقع (أدب : الموسوعة العالميّة للشعر العربيّ www.adab.com.) ، رقم القصيدة : 75798.

(21) المصدر السابق.

(22) رصاص ، ديوان (سفن الرحيل) ، اتّحاد الكتّاب الفلسطينيين في الضفة والقطاع ، 1990 ، ص66.

(23) مجلة الجديد ، حيفا ، العددان 11و12 ، كانون أول ، 1990 ، ص58.

(24) رجاء عيد ، القول الشعري (منظورات معاصرة) ، منشأة المعارف ، الإسكندريّة ، 1995 ، ص140.

(25) الأدب العربي المعاصر في فلسطين ، ص250.

(26) لا تعترف ، كتاب شعر الانتفاضة ، ص153_154.

(27) موسوعة الأدب الفلسطينيّ المعاصر (الشعر) ،1/218_219.

(28) المصدر السابق ، ص157.

(29) كتاب شعر الانتفاضة ، ص292.

(30) موسوعة الأدب الفلسطينيّ المعاصر (الشعر) ، ص290.

(31) الأدب العربيّ المعاصر في فلسطين ، ص218.

(32) انظر : علي عشري زايد ، عن بناء القصيدة العربيّة ، مكتبة ابن سينا ، القاهرة ، ط4 ، 2002، ص62.

(33) انظر : العربيّ حسن درويش ، النقد الأدبيّ الحديث ، مكتبة النهضة المصرية ، ط2،1991 ، ص175 .

(34) الأعمال الكاملة ، 3/504_512 .

(35) أنا والمخيّم والقضيّة ، ص92 .

(36) حتّى يعود شعبنا ، منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ص11_13.
(37) أوراق الزيتون ، دار العودة ، بيروت ، ص16.
(38) ديوان (المجد ينحني لكم) ، ص 79_90.
(39) ديوان (حجر ويكتمل القمر) ، اتّحاد الكتّاب الفلسطينيين ، القدس _1990 ، ص 30_32.
(40) هذا ما قالته الريح لسيدة الميناء ، ديوان (المجد ينحني لكم) ، ص 161.
(41) رسالة إلى غزاة لا يقرؤون ، الأعمال الكاملة ، المجلّد الثالث ، دار الجيل ، بيروت ، ط1، 1992، ص405_411.
(42) المصدر السابق ، ص_411.
405/3_411.
(43) ديوان (كلمات كانت مسجونة) ، ص65_67.
(44) انظر : عزّ الدين إسماعيل ، الشعر العربيّ المعاصر ، المكتبة الأكاديمية ، ط6، 2003 ، ص161.
(45) سميح القاسم ، الأعمال الكاملة ، 3/504_512.

الخَاتمَة :

فِي ضَوْءِ دِرَاسَةِ الأَعْمَالِ الشِّعْرِيَّةِ التِي تَنَاوَلَت مَشْهَدِ المُخَيَّمِ فِي صُوَرِهِ المُخْتَلِفَةِ ؛ فَإِنَّهُ يُمْكِنُنَا الخُرُوجُ بِبَعْضِ النَّتَائِجِ حَوْلَ المُسْتَوَيَيْنِ الفَنِّيِّ وَالفِكْرِيِّ ، عِلْمَاً بِأَنَّ الدِّرَاسَةَ قَدِ شَمِلَتِ الأَعْمَالَ الشِّعْرِيَّةَ التِي كُتِبَتْ فِي الفَتْرَةِ مَا بَيْنَ سَنَةِ ثَمَانٍ وأَرْبَعِينَ وَتِسْعُمِائَةٍ وألْفٍ (1948) وَسَنَةِ أَرْبَعٍ وتِسْعِينَ وَتِسْعِمَائَةٍ وَأَلْفٍ (1994) ، وَهِيَ بِلا شَكٍّ أَعْمَالٌ مُتَبَايِنَةٌ فِي المُسْتَوَى وَالقِيمَةِ الفَنِّيَّةِ .

فَمِنَ النَّاحِيَةِ الفَنِّيَّةِ فَإِنَّهُ يُمْكِنُنَا القَوْلُ إِنَّ كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ الأَعْمَالِ قَدِ ارْتَقَى إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ إِلَى مُسْتَوَى الحَدَث ، فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالعَلاقَةِ بَيْنَ الشَّكْلِ وَالمَضْمُونِ ، وَخَاصَّةً أَعْمَالَ الشُّعَرَاءِ الذِينَ كَانَ لَهُمْ حُضُورٌ وَاضِحٌ وَمُؤَثِّرٌ فِي المَشْهَدِ الفِلَسْطِينِيّ ، وَفِي تَصْوِيرِ وَاقِعِ الحَيَاةِ فِي المُخَيَّمَاتِ بِآلامِهَا وَآمَالِهَا ، مِنْهُم : هَارُونُ هَاشِم رَشِيد ، وعَبْدُ الكَرِيمِ الكَرْمِيّ ، وسَمِيحُ القَاسِم ، وَمُعِينُ بْسِيسو . وَالشُّعَرَاءِ الذِينَ لَمَعَ نَجْمُهُم وَذَاعَ صِيتُهُم فِي سَنَوَاتِ الانْتِفَاضَةِ الأُولَى ، مِنْهُم : عَبْدُ النَّاصِرِ صَالِح ، وَمُنِيبُ فَهْد الحَاج ، وَوَدَادُ البَرْغُوثِيّ ، وَغَيْرُهُم .

وَمِنْ حَيْثُ المُسْتَوَى ، فَقَد ظَهَرَ لِلْبَاحِثِ أَنَّ سِمَاتِ هَذِهِ الأَعْمَالِ لا تَخْتَلِفُ كَثِيرًا عَنِ السِّمَاتِ العَامَّةِ لِلشِّعْرِ المُعَاصِرِ ، وَخَاصَّةً فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالشَّكْلِ ، وَذَلِكَ يُؤَكِّدُ الرَّأْيَ السَّائِدَ فِي الأَوْسَاطِ الشِّعْرِيَّةِ الفِلَسْطِينِيَّةِ ، وَهُوَ أَنَّ الشِّعْرَ الفِلَسْطِينِيَّ جُزْءٌ لا يَتَجَزَّأُ مِنَ الحَرَكَةِ الشِّعْرِيَّةِ العَرَبِيَّةِ بِصَفَةٍ خَاصَّة ، وَالشِّعْرِ المُعَاصِرِ عَامَّة .

ولَعَلَّ الذِي مَيَّزَ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الأَعْمَالِ ، ومَنَحَهُ صِفَةَ الخُصُوصِيَّةِ وَالتَّفَرُّدِ أَنَّهَا تَلْتَقِي حَوْلَ مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ مُشْتَرَكٍ شَغَلَ الرَّأْيَ العَامَّ المَحَلِّيَّ ، وَالعَرَبِيَّ ، وَالإِقْلِيمِيَّ ، وَالعَالَمِيَّ ، لِسَنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ _وَمَا يَزَالُ_ أَلا وَهُوَ وَصْفُ الحَيَاةِ فِي المُخَيَّمِ بِصُوَرِهَا المُخْتَلِفَةِ ، وَدِلالاتِهَا المُتَنَوِّعَةِ : الصَّبْرُ وَالصُّمُودُ فِي مُقَابِلِ البُؤْسِ وَالمُعَانَاةِ ، وَالتَّحَدِّي وَالمُوَاجَهَةُ فِي مُقَابِلِ الاضْطِهَادِ وَالقَتْلِ .

وَتَجْدُرُ الإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ شُعَرَاءَ فِلَسْطِينَ قَدِ اعْتَمَدُوا فِي تَصْوِيرِهِم لِمَشَاهِدِ الحَيَاةِ فِي المُخَيَّمِ عَلَى التَّقْرِيرِيَّةِ ، التِي تُعَبِّرُ عَنِ الأَشْيَاءِ تَعْبِيرًا مُبَاشِرًا ، يُنَاسِبُ مِثْلَ هَذَا النَّوْعِ مِنَ المَوْضُوعَاتِ التِي تَتَطَلَّبُ وُضُوحًا فِي النَّبْرَةِ الخِطَابِيَّةِ ؛ ذَلِكَ أَنَّهُم يُخَاطِبُونَ مُسْتَوَيَاتٍ مُتَبَايِنَةً مِنَ الثَّقَافَاتِ ، بَلْ يُخَاطِبُونَ جَمَاهِيرَ الشَّعْبِ الفِلَسْطِينِيِّ بِأَكْمَلِهِ ، الذِي تَرْبِطُهُم بِهِ العَاطِفَةُ الوَطَنِيَّةُ ، وَوِحْدَةُ القَضِيَّةِ وَالمَصِيرِ ، فَغَلَبَ عَلَيْهَا اسْتِخْدَامُ اللُّغَةِ المُعْجَمِيَّةِ الوَاضِحَةِ ، وَهِيَ لُغَةٌ أَلْفَاظُهَا مُسْتَقَاةٌ مِنْ وَاقِعِ الحَيَاةِ فِي المُخَيَّمِ ، وَمِنْ المُعْجَمِ العَرَبِيِّ الفِلَسْطِينِيِّ البَسِيطِ ، ذَلِكَ المُعْجَمُ الذِي يَنْبِضُ بِالحَرَكَةِ ، وَيَقِفُ بِاللُّغَةِ عِنْدَ حُدُودِ مَعَنَاهَا المُبَاشِر ، وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنْ أَسَالِيبَ قَرِيبَةٍ مِنْ مُتَنَاوَلِ الجُمْهُور .

وَيُمْكِنُنَا أَنْ نَعْتَبِرَ ذَلِكَ مَلْمَحًا مِنْ المَلامِحِ التِي مَيَّزَت هَذِهِ الأَعْمَالَ الشِّعْرِيَّةَ ، فَرَضَتْهُ طَبِيعَةُ الحَدَثِ وَالمَوْقِفُ . وَرُبَّمَا يَعُودُ ذَلِكَ إِلَى وُضُوحِ الأَهْدَافِ ، وتِلْقَائِيَّةِ المَشْهَدِ ، فَعِنْدَمَا يَكْتُبُ الوَاحِدُ مِنْهُم عَنِ الخَيْمَةِ أَوِ المَوْتِ أَوِ الحِصَارِ ، فَهُوَ لا يَكْتُبُ عَنْ شَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَسْتَحْضِرَ صُورَتُهُ مِنْ فَرَاغٍ ، وَإِنَّمَا يَكْتُبُ عَنْ وَاقِعٍ يَعِيشُهُ ، وَلا يَسْتَدْعِيهِ مِنَ الذَّاكِرَةِ أَوِ الخَيَالِ .

وَمِمَّا يَلْفِتُ الانْتِبَاهَ فِي الأَعْمَالِ الشِّعْرِيَّةِ التِي رَسَمَت صُورَةَ المُخَيَّمِ شُيُوعُ دِلالةِ المُوَاجَهَةِ وَالتَّحَدِّي عِنْدَ سُكَّانِ المُخَيَّمَاتِ _وَخَاصَّةً فِي شِعْرِ الانْتِفَاضَةِ الأُولَى_ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الشُّعُورَ السَّائِدَ فِي نُفُوسِ الفِلَسْطِينِيينَ هُوَ الرَّغْبَةِ الصَّرِيحَةِ فِي المُقَاوَمَةِ وَالتَّحَدِّي ، وَمِنْ هُنَا فَإِنَّهُ يُمْكِنُ القَوْلُ : إِنَّ التَّحَدِّيَ الذِي بَرَزَ فِي حَيَاةِ اللاجِئِينَ ، لَيْسَ تَحَدِّيًا سَلْبِيًّا عَاجِزًا عَنِ الفَاعِلِيَّةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ تَحَدٍّ قَائِمٌ عَلَى المُوَاجَهَةِ الفِعْلِيَّةِ مَعَ العَدُوّ ، رَغْمَ المُمَارَسَاتِ الوَحْشِيّةِ ، مَهْمَا طَالَ الزَّمَانُ وبَعُدَ المَكَانُ ، فَلَمْ يَعُدِ المُخَيَّمُ هُوَ ذَلِكَ المَكَانُ البَائِسُ الذِي يَسْكُنُهُ مَجْمُوعَةٌ مِنَ اللاجئِينَ البَائِسينَ المُغَيَّبِينَ عَنِ التَّارِيخِ ، بَلْ صَارَ عُنْوَانًا لِرَفْضِ كُلِّ أَشْكَالِ الذُّلِّ وَالحِرْمَانِ . وَذَلِكَ بِسُلُوكِ طَرِيقَيْنِ مُتَوَازِيَيْنِ ، أَحَدُهُمَا : يَتَجِهُ نَحْوَ التَّعْبِئَةِ الجَمَاهِيرِيَّةِ ، وَالآخَرُ : يَحْمِلُ عَلَى عَاتِقِهِ عِبْءَ المُقَاوَمَةِ وَالمُوَاجَهَةِ .

مصادر البحث

_ رَجَاء عِيد ، القَوْلُ الشِّعْرِيّ (مَنْظُورَاتٌ مُعَاصِرة) ، مُنْشَأَةُ المَعَارِف ، الإِسْكَندَرِيّة ، 1995.

_ سُلاَفَة حِجَّاوِي ، دِيوان (سُفُنُ الرَّحِيل) ، اتّحاد الكتّاب الفلسطينيين ، 1990.

_ سَلْمَى الخَضْرَاءُ الجَيُّوسِيّ ، مَوْسُوعَةُ الأَدَبِ الفِلَسْطِينِيِّ المُعَاصِرِ (الشِّعر) ، المُؤَسَّسَةُ العَرَبِيَّةُ لِلدِّرَاسَاتِ والنَّشْر ، ط1 ، 1997.

_ سَمِيحُ القَاسِم ، الأَعْمَالُ الكَامِلَة ، المُجَلّدُ الثَّالِثُ ، دَارُ الجِيلِ ، بَيْرُوت ، 1992.

_ عَادِل أَبو عَمْشَة ، شِعْرُ الانْتِفَاضَة ، اتّحَادُ الكُتّاب الفِلَسْطِينِيِّينَ ، القُدْس ، ط1 ، 1991.

_ عَبْدُ الرَّحْمن بَدَوِيّ ، المَوْتُ وَالعَبْقَرِيَّة ، مَكْتَبَةُ النَّهْضَة المِصْرِيَّة ، 1962.

_ عَبْد اللَّطِيف عَقْل ، قَصِيدَةُ : مَقَاطِعُ الصَّحْوِ وَالنَّــوْم ، مَوْقِــعُ (أَدَب : المَوْسُــوعَةُ العَالَمِيَّــة لِلشِّــعْرِ العَرَبِــيّ www.adab.com) .

_ عَبْدُ النَّاصِر صَالِح ، دِيوان (المَجْد يَنْحَنِي لَكُم) ، اتِّحَادُ الكُتَّابِ الفِلَسْطِينِيِّينَ فِي الضفَّة وَالقِطَاع ، القُــدْس ، ط1 ، 1989.

_ عَدْنَان ضَمِيرِي ، دِيوَان (حَجَرٌ وَيَكْتَمِلُ القَمَر) ، اتّحَادُ الكُتّاب الفِلَسْطِينِيِّينَ ، القُدْس ، 1990.

_ العَرَبِيّ حَسَن دَرْوِيش ، النَّقْدُ الأَدَبِيّ الحَدِيث ، مَكْتَبَةُ النَّهْضَةِ المِصْرِيَّة ، ط2 ، 1991.

_ عِزُّ الدِّين إِسْمَاعِيل ، الشِّعْرُ العَرَبِيُّ المُعَاصِر ، المَكْتَبَةُ الأَكَادِيمِيَّة ، ط6، 2003.

_ عَلِيّ عَشْرِيّ زَايد ، عَنْ بِنَاءِ القَصِيدةِ العَرَبِيَّة ، مَكْتَبَةُ ابْنُ سِينَا ، القَاهِرة ، ط4.

_ فَدْوَى طُوقَان ، الأَعْمَالُ الكَامِلَة ، دَارُ العَوْدَة ، بَيْرُوت ،2002.

_ كَامِلُ السَّوَافِيرِيّ ، الأَدَبُ العَرَبِيّ المُعَاصِرُ فِي فِلَسْطِين ، دَارُ المَعَارِفِ بِمِصْر.

_ مَجَلَّةُ الجَدِيد ، حَيْفَا ، العَدَد 5 ، 1988.

_ مَجَلَّةُ الجَدِيد ، العَدَد 9 ، 1989.

_ مَحْمُود دَرْوِيش ، أَوْرَاقُ الزَّيْتُون ، دَارُ العَوْدَة ، بَيْرُوت .

_ مُرِيدُ البَرْغُوثِيّ ، قَصَائِدُ مُخْتَارَةٌ ، وَزَارَةُ الثَّقَافَةِ الفِلَسْطِينِيَّة ، سِلْسِلَةُ كِتَاب : القِراءَةُ لِلجَمِيع (3) ،2001.

_ مُعِينُ بسِيسُو ، قَصَائِدُ مُخْتَارَةٌ ، وَزَارَةُ الثَّقَافَةِ الفِلَسْطِينِيَّة ، سِلْسِلَةُ كِتَاب : القِراءَةُ لِلجَمِيع (2) ، 2001.

_ نَظْمِي بَرَكَة ، الاتِّجَاهُ الرُّومَانْسِيّ فِي الشِّعْرِ الفِلَسْطِينِيّ ، الفَجْرُ لِلطِّبَاعَةِ وَالنَّشْر والتَّوْزِيع ، 1995.

_ هَارُونُ هَاشِم رَشِيد ، دِيوَان (مَعَ الغُرَبَاء) ، ط1 ، القَاهِرة ، 1954.

_ هَارُونُ هَاشِم رَشِيد ، حَتَّى يَعُودَ شَعْبُنَا ، مُنَظَّمَةُ التَّحْرِيرِ الفِلَسْطِينِيَّة ، بَيْرُوت .

_ وِدَادُ البَرْغُوثِيّ ، دِيوَان (لِلْفُقَرَاءِ فَقَطْ) ، اتِّحَادُ الكُتَّابِ الفِلَسْطِينِيِّين ، ط1 ، 1991.

_ يُوسُف حَامِد ، دِيوَان (أَكْمِلْ غِنَاءَك) ، اتِّحَادُ الكُتَّابُ الفِلَسْطِينِيِّين ، ط1 ، 1988.

_ يُوسُفُ الخَطِيب ، دِيوَان (عَائِدُون) ، مَنْشُورَاتُ دَارِ الآدَابِ ، بَيْرُوت ، 1959.